المكتبة الثقافية

٥٠

حركات التسلل ضد القومية العربية

الدكتور ابراهيم احمد العدوى



أول ديسمبر ١٩٦١

المكتبة الثقافية
٥٠

حركات التسلل ضد القومية العربية

الدكتور ابراهيم احمد العدوى

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
الإدارة العامة للثقافة

أول ديسمبر ١٩٦١

صفحة كتب سياحية و أثرية و تاريخية على الفيس بوك

قناة الارشاد السياحي على اليوتيوب



قناة الكتاب المسموع



صفحة كتب سياحية و أثرية و تاريخية على الفيس بوك



سنكافح دائماً من أجل .

تثبيت القومية العربية ومن أجل

تثبيت الحرية العربية . . . .

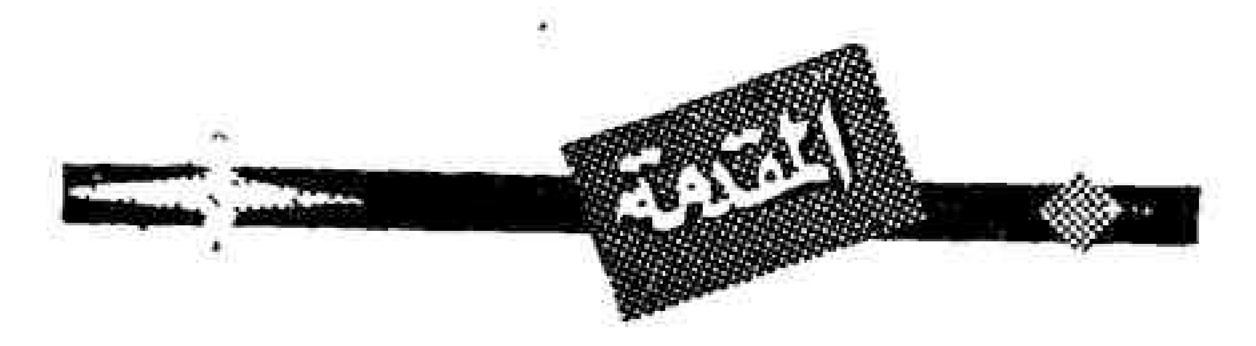
إننا حينما نادى بالقومية العربية

إنما نبنى وطناً عربياً يتعاون فيه

الجميع من أجل الجميع ومن أجل

السلام .

جمال عبد الناصر



هدف هذا الكتاب إلى تصوير حركات التسلل الكبري التى هاجمت القومية العربية ، منذ فجر تاريخها إلي الوقت الحاضر ، وكيف تحطمت تلك الحركات على صخرة هذه القومية الخالدة ، بفضل يقظة أبنائها وسهرهم على حمايتها .

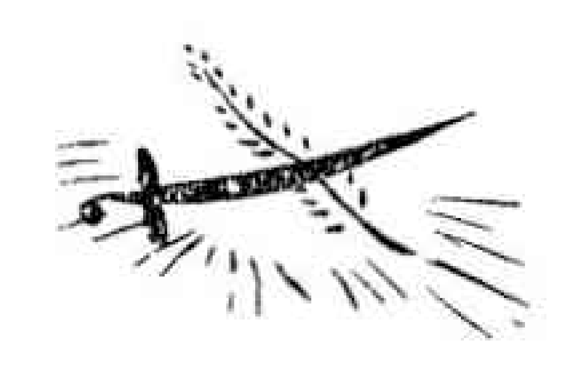
وبدأت الحركات الأولى للتسلل ضد القومية العربية من فارس ، حيث يستعرض الفصل الأول مراكزها فى تلك البلاد والدوافع علي نشاطها . وتلوّنت تلك الحركات المبكرة بألوان عديدة سياسية ، وعقائدية ، واجتماعية ، ولكنها باءت كلها بالفشل على نحو ما تصوره الفصول : الثانى والثالث والرابع على التوالى ، لأن سلامة بناء القومية العربية وتضامن ابنائها ، ردّ كل تلك الحركات على أعقابها مدحورة .

وقد استخدمت فى العرض التاريخى للحركات السالفة معنى القومية العربية للدلالة على المصطلحات القديمة التى رددتها المراجع ، مثل العنصر العربى أو العرب . إذ كلمة القومية العربية اليوم ترادف تماما المصطلحات القديمة معنى ومبنى .

أما **الفصل** الخامس والأخـير ، فيستعرض التسلل الاستعمارى ، الذى تستهدف الصهيونية منه فى الوقت الحاضر إحياء الحركات الفاشلة الماضية ، دون أن تأخذ لنفسها عظة وعبرة منها ، شأنها فى ذلك شأن الحاقد الذى تعمى قلبه و بصره المطامع والنزوات .

ويلمس القارئ لهذا الكتاب أن نهاية هذه الحركة الأخيرة قاتم محزن لا محالة ، سواء للقائمين بها أو العاملين عليها ، شأن قريناتها من الحركات القديمة . أما القومية العربية فإنها تزداد منعة وقوة من جهادها ضد تلك الحركات ، وتمضى قدما فى سبيل تحقيق رسالتها الخالدة من اجل الاحتفاظ بسلام الإنسانية وحضارتها .

إبراهيم أحمد العدوى



الفصل الأول

مراكز التسلل ضد القومية العربية

دار العرب :

دار العرب بناء راسخ الأوتاد، يمتد من الخليج العربي شرقا إلي المحيط الأطلسي غربا، ومن جبال طوروس شمالا إلى قلب إفريقية جنوبا. ونشأ أبناء هذه الدار فى ظل قومية متينة، وضع أساسها وحدّد معالمها الرسول العربى الكريم فى قوله : « ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هى اللسان، فمن تكلّم العربية فهو عربى ». فصار كل فرد فى هذه الدار يجد فى لسانه العربى الجديد نسبا يعوضه أصهاره القدامى، وقومية تجعله يقف مع إخوانه صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص.

وتولىّ حراسة هذه القومية تقاليد عريقة توارثها أبناء الأمة العربية عن أجدادهم الأول، وغدت على مرّ العصور، السلاح

الماضى الذى يدافع عن مقدساتها وسلامتها . وأول تلك التقاليد اعتزاز الفرد بعروبته ، لأنها العنصر الأساسى فى تكوين شخصيته وبقائها محترمة مهابة عند جيرانها . فسرت فى نفس كل عربى روح القومية العربية التى عبّر عنها فى ثقة عالية منذ عصر مبكر ، النعمان الثالث ، ملك الحيرة العربى حين وصف لكسرى الفرس فضائل أمته ، فقال :

« أيها الملك ، أى أمة تقرنها بالعرب الا فضلتها .... بعزّها ومنعتها ، وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها . . . . والعرب لم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيولهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنّتهم السيوف ، وعدّتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم ، إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور . » فما زالت الروح المعنوية التى ضمتها القومية العربية ، على النحو الذى شرحه هذا الزعيم العربى ، تقف فى وجه قوى الظلم والطغيان ، وتحفظ للأمة العربية مقوماتها وعزها .

ودعّم هذا الخلق الرفيع الذى استندت إليه القومية العربية التقليد الثانى الذي تلقنه كل عربى منذ نعومة أظفاره ، وهو الوفاء بالوعد وعدم الحنث به مهما بذل فى سبيل ذلك

من تضحيات . فورث العرب تلك الخصلة الحميدة عن أبائهم الأول ، إذ كان الفرد منهم يدافع عن أرض قبيلته التى أطلق عليها اسم « الحمى » . فلم يجرؤ انسان علي اجتياز هذا الحمي دون عقد العهود والمواثيق مع العرب لينال بذلك مساعدته فى ميدان التجارة والاقتصاد . وامتد هذا الحمي بامتداد القومية العربية ، وصار أتباعها يدافعون عنها بالحماسة نفسها التى دافع بها العربى الأول عن حمى قبيلته .

وأضافت الأحداث التاريخية قوة جديدة إلى القومية العربية ، ذلك أن الرسول العربى الكريم وضع لأتباعه دستورا صريحا ينصّ على : أن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماؤهم فى سبيل الله » . فأصبح كل عربي مسئولا ، بمقتضى الدستور السالف ، مسئولية شرعية عن حماية أخيه العربى . وكلما اتسعت دار العرب امتدّت تلك الحماية ، وصارت شعار القومية العربية من الخليج العربى شرقا إلي المحيط الأطلسى غربا ، إذ نادى كل عربى فى تلك الرقعة الكبرى بأنه مسئول عن حماية أخيه مهما بعدت به الشقة .

وبذلك انزوت فى هذا البناء العربى الجديدالقوميات القديمة ، وظهرت مكانها القومية العربية الواحدة ، لا مجال فيها للذكريات

القديمة التي تثير الأحقاد والمنازعات ، وإنما السبيل فيها واسع للعمل من أجل المستقبل ، والتعاون على ما فيه صالح أمتهم . وأنجبت القومية العربية قادة عظاما سجّلوا أسماءهم فى ميدان الدفع عنها وحراسة دارها ، وأصبحت سيرة كل بطل منهم ، مهما كان موطنه من الخليج العربى شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، موضع إعجاب الجميع وتقديرهم ، لأنه ابن لهذه الأمة العربية الجديدة التى لا تفرق فى محبتها بين أحد من أبنائها .

وبهرت القومية العربية أبصار العالم المجاور لها برسالتها الإنسانية السامية ، ذلك أن العرب لم يعرفوا تعصبا عنصريا ، أو تفرقة لونية أو ثقافية ، وأثبتوا للعالم أجمع أنهم رسل هداية وسلام . ثم إنهم بسطوا أيديهم لكل من يريد التعاون معهم فى خدمة الحضارة الإنسانية ، اما من يتخوّنهم أو يعمل علي خداعهم فلن يستطيع التمادى فى غيّه ، لأن صفاء جوهر القومية العربية ينبذ فى سرعة خاطفة هذا اللون من الانحراف ، ويزيد من منعة تلك القومية وجلدها علي مواجهة الشدائد وصعاب الأمور .

مراكز التسلل :

وفى الوقت الذى كانت القومية العربية تجتاز فيه مرحلة الانصهار والتطور ، وتعمل على أداء رسالتها فى خدمة البشرية ، بدأت حركات التسلل تهاجمها ، مستهدفة حرمانها من الازدهار والنمو ، ومنعها من تثبيت أقدامها ، شأن المطامع الاستعمارية التى تحارب دائماً أصحاب الرسالات الإنسانية . ذلك أنه جاور دار العرب جهات لم يفهم أهلها حقيقة القومية العربية ، واعتبروا انتصارها فى منطقة شاسعة — تمتد من الخليج العربى شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا — نوعا من السيادة العنصرية ، وأن الأمر يقتضي محاربة تلك القومية قبل أن تستقر أوتادها .

وتعرف هذه الحركة التى نظرت إلى القومية العربية بعين ملؤها الحقد والكراهية باسم «الشعوبية» ، وهى تسمية مشتقة من الشعوب ، أى العودة إلي ماضى الشعوب والتفاخر بعصبيتها الجغرافية والتاريخية ، ونبذ رسالة العرب التي تهدف إلى خلق مجتمع جديد قوامه : أن التشبث بالماضى والبكاء على أطلاله ودمنه لن يجدي شيئاً غير إثارة الأحقاد المريرة التي لا طائل

من ورائها وأن من خير البشرية أن تسود المساواة الجميع ، وأن يتعامل الناس على أساس تبادل المنافع واحترام الحقوق .

واتخذت هذه الحركة العدائية الأولى للعرب وقوميتهم مراكز لها فى فارس على الباب الشرقى لدار العرب . ذلك أن الفرس حقدوا على القومية العربية لنجاحها فى تأليف قلوب شعوب شتي ، وكرهوا السلطان الذى آل للعرب ، ممثلا فى دولة شاسعة خضعت لها بلاد فارس نفسها . فظل الفرس يتمسكون بماضيهم البائد ، وتملأ الحسرات قلوبهم على ضياع مجدهم السياسى ، وأبوا الاستجابة لسياسة المودّة التى سعى بها إليهم خلفاء الأمة العربية ورجال السلطان فيها . ذلك أن العرب أطلقوا على الفرس اسم « الموالى » ، وهو لقب حمل عندهم أعظم المعانى وأسماها . فالموالى عند العربى هم حلفاؤه وورثته من بنى عمومته وإخوته وسائر عصبه ، أى أنهم عصبية المرء التى بها يحتمى ويعتز .

ولما قامت الدولة العربية دأب الخلفاء الراشدون على تقريب الموالى إليهم ، وإتاحة كل الفرص أمامهم للتعاون مع الأمة العربية والتمتع بسلطانها وحمايتها . وتابع خلفاء بنى أمية من عاصمتهم دمشق سياسة الحسنى فى معاملة الموالى ، وتوسعوا فى إلحاقهم بشتى المناصب الإدارية والعلمية والعسكرية ، دون أية

تفرقة بينهم وبين العرب ، أملا فى توثيق أواصر الروابط والمحبة بينهم وبين القومية العربية .

غير أن الفرس لم يقدروا للأمة العربية رحابة صدرها ، ولم يفهموا رسالتها الإنسانية ، وصرفوا جهودهم فى محاربتها وعرقلة نشاطها . ولجأ الفرس فى عدائهم إلى أساليب التسلل ، أى تجنب الاشتباك مع العرب فى معارك مكشوفة ، وانتهاز الفرص المواتية للغدر بهم والختل . وجاء هذا اللون من العداء نتيجة قوة القومية العربية وسلامة بنائها وحبها للعمل بعيداً عن الظلام . فلم يجد أعداؤها أخطاء لها يمكنهم استغلالها ، أو هنات تخول لهم الخروج على تعاليمها . وجرت حركات التسلل الفارسى ضد القومية العربية على مرحلتين ، إحداها اختفوا فيها وراء المناداة بدعاو سلمية مزيفة ، وشعارات خادعة ، أشبه بوضع السم فى العسل . والأخرى لجأوا فيها إلى الجهر بآرائهم ، والاستناد إلى العنف ، إذا ما آنسوا من أنفسهم قوة ، أو وجدوا ثغرة مواتية تتيح لهم الهجوم منها . ولم يقم بين هاتين المرحلتين حد فاصل ، وإنما جرت حركات التسلل فيهما حسبما أملته الظروف ، أو اقتضته الأوضاع والمناسبات .

وأقبل الفرس على تعلم اللغة العربية ليدرسوا عن طريقها

سرّ قوة أصحابها ، وليسهل عليهم الاندساس بينهم ، ونشر دسائسهم وأغراضهم الهدامة . وتولى نفر من علماء الفرس قيادة حركات التسلل المبكرة ضد القومية العربية ، دون أن يقدسوا الأمانة العلمية . وتجلّت طلائع تسللهم فى تزييف التاريخ والالتجاء إلى المغالطات العلمية . ومن ذلك أنهم لجأوا إلى مقارنة ماضى الأمة العربية فى العصر الجاهلى بما عاصرها إذ ذاك من الأمم . وتمخضت أعمال بعضهم عن وضع كتب حشوها بالأكاذيب وأطلقوا عليها اسم مثالب العرب . وحاول هذا النفر من المتسللين العلماء صرف الناس عن الاعتزاز بعروبتهم ، نتيجة رواج تلك الكتب الزائفة التي وضعوها باللغة العربية . إذ رأوا في إقبال الناس على قراءة كتبهم سبيلا للتسلل ضد القومية العربية والنيل منها . وبدأت هذه الكتب الزائفة تنتشر وتتسلل تحت ستار النهضات العلمية والأدبية التي سادت أرجاء الدولة العربية .

وبدأت مراكز التسلل فى فارس نشاطها منذ عهد مبكر ، مستغلة الأحزاب السياسية التى ظهرت في الدولة العربية ، ذلك أنه أعقب وفاة الخليفة : عثمان بن عفان ، وما تلا مصرعه من نزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، قيام ثلاثة أحزاب سياسية ، هى الخوارج الذين انشقوا على طاعة على بن أبى طالب ،

والشيعة الذين ايدوا على بن أبى طالب واولاده من بعده ، والمرجئة الذين وقفوا على الحياد من أحداث النزاع بين الحزبين السالفين وأرجأوا الحكم عليهما إلى يوم القيامة ، إلى الله سبحانه وتعالى . فأخذ الفرس يتسللون بين تلك الأحزاب بتوسيع شقة الخلاف بين الأطراف المتنازعة تارة ، وبإثارة الريبة في النفوس عندما تظهر فى الأفق المساعى الحميدة لإصلاح ذات البين وتوحيد الصف العربي .

وتأثر قادة الخوارج بسموم دعاة التسلل الفارسى بعد أن لجأوا إلى فارس عقب الهزائم التى حلّت بهم على يد علي بن أبي طالب . فقال الخوارج : إن الخلافة لايجب أن تقتصر على العرب ، وفتحوا بذلك ثغرة أمام أعداء القومية العربية للتسلل وتحقيق مآربهم الفاسدة . وفى الوقت نفسه وجدت حركات التسلل عُشـّها الأمين فى حزب الشيعة ، إذ بدأ الفرس يُروجون نظرية الشيعة القائلة : إن الخلافة يجب أن تنحصر فى بيت علي بن أبي طالب ، وأضفوا عليها من خيالهم الفارسى ما جعلها ستارا يتسللون وراءه ضد الأمة العربية . ولم تَنْجُ المرجئة نفسها من حركات التسلل ، على الرغم من مبادئها السلمية ، إذ استطاع قادة تلك الحركات أن يجرفوا المرجئة أمام

تيارهم الفاسد ، باستغلال تقوى أنصار هذا الحزب ، واستدرار عطفهم بالشعارات الزائفة ، والالتجاء إليهم فى وقت الأزمات باعتبارهم حماة الضعفاء والمظلومين . وكان وقوع أولئك الأتقياء فى حبائل حركات التسلل أخطر ثغرة واجهتها القومية العربية . إذ اقتضى الأمر مجهودا شاقا لتبصرة هذا النفر من أبناء الأمة العربية بالسموم التي تختفي وراء احتضانهم لدعاوى الفرس الزائفة . ولم يدرك أولئك الأتقياء أخطار الشراك التي وقعوا فيها إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن أفلت زمام الأمر كذلك من أيديهم . وصار الموقف يقتضى اليقظة والحزم في محاربة مراكز التسلل ، والعمل على اكتشاف الرؤوس المشرفة عليها ، وحماية القومية العربية من سمومها وشرها .

مراقبة مراكز التسلل

إفاقة أولى الأمر من العرب :

كان خلفاء البيت الأموى فى دمشق أول من أحس خطر التيار المتدفق من مراكز التسلل الفارسى ، وبادروا باتخاذ الوسائل الفعالة لإيقافه وهدم نشاطه . ذلك أن أبناء هذا البيت ينتمون إلى الأصول العربية التى تدرك بفطرتها السليمة مصادر

الخطر التى تهددها قبل انطلاقها من معاقلها ، وتعمل فى سرعة وحزم على وأدها وهى فى مهدها . ثم إن الأمويين لمسوا بأنفسهم أثناء جهادهم من أجل الحصول على الخلافة تسلل الفرس ضد الأمة العربية عن طريق الانضمام إلى الأحزاب السياسية ، ووقفوا على الكثير من أساليبهم الملتوية الخادعة .

ووقف الأمويون بالمرصاد لهذه الحركات التسللية ، وبدأوا يراقبون الفرس الذين التحقوا بمناصب الدولة العربية ، وضرب كل من يخون الأمانة التي عهدت بها إليهم السلطات العربية . وتطلب الأمر يقظة كاملة ، لأن نفرا من أولئك العمال الفرس أجاد إذ ذاك ، اللغة العربية ، وصار يعبر بها تعبيرا دقيقا عن آرائه ويضمنها أغراضه المعادية للقومية العربية . ولكن الخلفاء الأمويين كشفوا فى سرعة مدهشة ما يأتي بين سطور العمال الفرس ، وأخذوا يحاسبونهم عليها حسابا عسيرا ، حماية للأمة العربية ووطنها .

وتجلى نجاح الأمويين فى صد طلائع حركات التسلل ضد القومية العربية فى مراقبة الشعراء الفرس الذين وفدوا على بلاطهم وألقوا القصائد العديدة فى حضرتهم . فالأمويون جروا على التقاليد العربية فى تشجيع الشعراء والأدباء ، وإغداق العطايا

والهبات على المجيد منهم ، ولاسيما من تحقق أعماله الأدبية خدمات جليلة للغة العربية ورَفْعِ شأنها . واشتهر فى بلاط الأمويين فى دمشق شاعر فارسى اسمه : إسماعيل بن يسار ، حيث لقى من الخلفاء كل ترحيب وإكرام . ولكن هذا الشاعر لم يحفظ للسلطات العربية حسن معاملتها له ، ولم ينس حقده وأصله الفارسي وبدأ يتحين الفرص المواتية ليتسلل ضد القومية العربية . ودأب يعلن فى مجالسه السرية كراهيته للعرب ، ولبيت مروان ، وهو الفرع الأموى الحاكم فى دمشق إذ ذاك . فقال مرة لبعض جلسائه من الفرس : إنى أبغض آل مروان ، وإن « امرأتى طالق إن لم تكن أمي تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح ، وإذا حضر أبي الموت ، وقيل له : قل لا إله إلا الله ، لقال : لعن الله مروان ، تقربا بذلك إلى الله تعالى ، وإبداله من التوحيد » .

وهكذا دأب هذا الفارسى على تلقين مواطنيه كراهية العرب ، والحط من شأن خلفائهم ، وذلك دون أن يُقَدِّر ما أسبغه أولئك الخلفاء عليه من عطف وتشجيع ورعاية . وصارت شخصية إسماعيل بن يسار نموذجا لهذا التسلل المبكر ضد القومية العربية ، إذ رأى الفرس في تَقَلُّد المناصب فى الدولة العربية سبيلا يتيح لهم أن يدرسوا عن كثب سرّ قوة هذه الأمة

آملين أن يرسموا الخطط الكفيلة بتحقيق مآربهم ضدها .

ولم يلبث إسماعيل بن يسار أن تمادى فى تساله ، وعمد إلى التغنى بمجد الفرس القديم ، مستهدفا النيل بطريق غير مباشر من القومية العربية . فألقى في حضرة الخليفة هشام بن عبد الملك قصيدة ملأها بذكرى العصبيات القديمة التى قضت عليها الأمة العربية ، ومحاولا إعادة الأحقاد المريرة المدفونة ، فقال :

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به
ولى لسان كحد السيف مسموم

من مثل كسرى وسابور الجنود معا
والهرمزان لفخر أو لتعظيم

أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا
وهم أذلّوا ملوك الترك والروم

هناك إن تسألى تُنْبَي بأن لنا
جرثومة قهرت عزّ الجراثيم

وأدرك الخليفة العربي هذه النزعة التسالمية فى قصيدة إسماعيل ابن يسار ، وعرف مراميها التى تخالف مبادىء القومية العربية التي تنادى بأن ليس للمرء إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، وأن الماضي والتمسك به لايجدي المرء شيئا . ثم إن الخليفة غضب

من محاولة ذلك الشاعر للتعريض بالقومية العربية ، وقال له : « أإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وقومك ؟ » . ثم أمر حرسه بأن يغطوه فى بركة بالقصر بها ماء حتى كادت أنفاسه تزهق . وجريا على سياسة الأمة العربية المتسامحة ، اكتفى الخليفة بهذا العقاب الذى قصد منه زجر كل من يحاول التسلل ، وأبقى على حياة إسماعيل بن يسار ، لعله يهتدى ويهدى بنى قومه .

حراسة إقليم العراق :

ورأى الأمويون أن سياسة مراقبة مراكز التسلل تقتضى حراسة إقليم العراق لأنه يمثل البوابة الشرقية لدار العرب ، والتى تجاور مباشرة مراكز التسلل الفارسى . وقام فى إقليم العراق إذ ذاك مدينتان هامتان ، هما البصرة والكوفة ، عمد الفرس إلى اتخاذها سبيلا للتسلل ضد الأمة العربية . ذلك أن هاتين المدينتين حفلتا بأعداد وافرة من الجاليات الفارسية نظراً لقربهما من فارس ، ولشهرتهما فى ميدان الحياة السياسية والاقتصادية للدولة العربية . فكانت البصرة ميناء هاما تأتى إليه وفود شتى من مختلف البلاد مما يسهل على دعاة التسلل التخفي والاندساس بين صفوف العرب . أما الكوفة فكانت مركزاً سياسياً عظيما منذ اتخذها على بن أبى طالب مقراً له ، وصارت بعد اغتياله مسرحا صالحاً لانطلاق حركات التسلل الفارسى .

ولكن باستتباب الأمر للأمويين فى حكم الدولة العربية بدأت سياسة حازمة لحراسة إقليم العراق، وسد الثغرات فيه أمام حركات التسلل المعادية للأمة العربية . وتولىَّ الطليعة من حراس العراق نفر من خيرة رجال العرب، ممن آمنوا إيمانا صادقا بقوميتهم العربية، وعرفوا أمثل السبل لحمايتها والسير بها فى طريق العزّ والفلاح . ومن هؤلاء الحراس العرب : زياد ابن أبيه، الذى ولى شئون البصرة سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م . وكانت تلك المدينة حين قدمها زياد مسرحا لدعاة التسلل، الذين عملوا إذ ذاك على بذر بذور الشقاق بين العرب، ليصبح الطريق مهيئاً أمامهم لتحقيق مفاسدهم دون خوف أو وجل .

ورأى زياد بن أبيه أن الموقف يقتضى نشر الهدوء والسكينة فى البلاد، حتى لا يجد دعاة التسلل ضد الأمة العربية سبيلا للعمل . وأعلن عن تلك السياسة فى خطبة ألقاها من على المنبر، دون أن يبدأها بالحمد والتسليم جريا على التقليد المتبع إذ ذاك فى الخطب، مما جعل خطبته تعرف باسم « البتراء » وقال فيها :

« أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، واشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير،

كأن لم تسمعوا بآى الله . . . . قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس . كل امرىء منكم يذبّ عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً ... حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسوّيها بالأرض هدما وإحراقا . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . ولأقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالطاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم قناتكم . . . .

« وإياى ودعوى الجاهلية ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب قوما نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنّاه فيه حيا . فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم ، أكفف عنكم يدى ولساني . »

وكان لهذه الخطبة العنيفة أثرها البالغ فى نفوس أهالى البصرة ، الذين جنحوا إلى الهدوء والسكينة ، وبذلك فقد دعاة التسلل الفارسى أسباب العمل ، وآثروا بدورهم إخفاء رؤوسهم أمام بطش هذا الحارس العربي الأمين . وظلت بلاد العراق طيلة

حكم زياد بن أبيه تنعم بالهدوء ، وبإدارة حازمة تقبض بعصى من حديد للبطش بكل من يبغى التسلل أو الإفساد .

وتابع سياسة حراسة إقليم العراق حاكم آخر لا يقل غيرةً على الأمة العربية عن زياد بن أبيه ، وهو الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى خلّد له التاريخ العربى أروع الصفحات فى تلك السبيل . وقدِم هذا الحارس الجديد إلى بلاد العراق سنة ٧٥ هـ/٦٩٥ م ؛ بعد ثورة اندلعت فيها ضد الأمويين ، وعمدت حركات التسلل إلى استغلالها كذلك لمهاجمة القومية العربية . واتجه الحجاج إلى الكوفة ، مهد الفتن السياسية ، متخفيا ليفاجيء رؤوس الشغب والتسلل بها . فعندما اعتلى المنبر كان متلثما ، وبقى مدّة لا يتكلم ، واضعاً إبهامه على فيه . فظنّ الحاضرون أنه ضعيف ، وهتف به أحدهم قائلا : ترّحه الله ، ماله لا يتكلم ، ما أعياه وأشناه وأدمّه ، ثم أخذ كفا من حصى ليقذف به الحجاج . وعندئذ قام هذا العربى الهمام ، وخطب أهل العراق خطبته الشهيرة ، التى استهلها بكشف القناع عن وجهه قائلا .

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

ثم أعلن الحجاج فى خطابه سياسته الحازمة فى حراسة إقليم العراق ، وأنه سوف يضرب فى شدة على محبي الشغب ، حتى

لايجد أعداء الأمة العربية سبيلا للتسلل عن طريقهم . فقال : « إن أمير المؤمنين عبد الملك ، نثر كنانته ، ثم عجم عيدانها ، فوجدني أمرّها عودا ، وأصلبها مكسرا ، فرماكم بي ، فإنكم طالما أوضعتم في الفتن ، وسننتم سنن الغي . . . والله لتستقيمن على سبل الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده . . » وبذلك تبين لأهل العراق أن الحارس العربي الجديد ليس عييا ولا ضعيفاً ، وأخذ الحصى يتساقط من يد الرجل الذى أراد أن يقذف به الحجاج ، كلما استمر هذا العربى الحازم فى كلامه ، وشرح سياسته .

واستهل الحجاج أعماله بإيقاف تيار الفرس المتدفق على مدن العراق حتى يحول بين تسلل المفسدين منهم وبين تحقيق مآربهم . ثم إن هذا الحاكم العربي رأي فى تلك السبيل عاملا يحافظ على انتظام الأحوال الاقتصادية فى فارس نفسها ، لأن المتسللين وجدوا فى الهرب من مدنهم خلاصا من التزاماتهم المالية . وكشف دعاة التسلل عن نواياهم إزاء سياسة الحجاج حين اجتمعوا خارج البصرة ، وأخذوا يبكون ويندبون ، استدرارا لعطف الأتقياء العرب ، الذين لم يتمكنوا بسرعة من اكتشاف تلك الحركات التسللية الخطيرة .

وساء الموقف فى العراق ، لأن تلك الحركة تحولت إلى ثورة كبري ، نادى فيها المتسللون بعزل الحجاج والخليفة نفسه . واستطاع الحجاج بعد مجهودات شاقة إخماد تلك الثورة ، التى جاءت بمثابة الطليعة لحركات التسلل من المراكز الفارسية ، وأثبت بصورة عملية أنه قد اجتاز هذا الامتحان القاسى فى سبيل دفاعه عن الأمة العربية ، وحراسة إقليم العراق . ثم صمم الحجاج بعد ذلك على تشتيت الجماعات الفارسية التى تسللت إلى مدن العراق بعد أن تبين بشكل لا يقبل الشك أنهم صاروا يشكلون خطرا على الباب الشرقى لدار العرب . فأعاد العمال الفرس وغيرهم ممن تسلل تحت ستارهم إلي بلادهم ، وأقرّ بذلك الأمن والطمأنينة فى العراق .

وهكذا سد الحجاج الثغرة التى عمدت حركات التسلل إلى الاستفادة منها فى إقليم العراق ، وظلت القومية العربية مهابة لا تجد ما يعكر سلطانها طيلة العصر الأموي .



(ا) الراوندية

أصول الراوندية :

بعد أن أعاد الحجاج الفرس إلى بلادهم ، لجأ قادة التسلل منهم إلى إقليم خراسان بالشمال العربى من فارس ، ليكونوا بمنأى عن سطوة هذا الحارس العربى وبطشه . وفى ذلك الوقت وقعت أحداث فى الدولة العربية وجد فيها أنصار التسلل فرصة مواتية للنيل من القومية العربية . إذ نظم العباسيون دعوة سرية لانتزاع الخلافة من الأمويين ، واتجهوا إلى إقليم خراسان لاستغلال سخط الفرس هناك ضد الأمويين . وانضم إلى العباسيين شخصية فارسية خطيرة ، هو أبو مسلم الخراساني والذى وجدت حركات التسلل فيه ميداناً خصباً لنشاطها وتحقيق مآربها .

واستهل هذا الداعي الفارسي اعماله بتفرقة الصف العربي في خراسان ، لأنه يعرف أن ذلك هو السبيل الوحيد لخدمة أغراضه . وأظهر أبو مسلم الخراساني نشاطا واسعا في تلك السبيل ، حتى إن قادة حركات التسلل انضووا تحت لوائه ، وساعدوه في مهامه . وأحس الحاكم العربي على خراسان من قبل الأمويين ، خطر هذه الحركات التسللية ، وبعث يحذر السلطات الأموية في دمشق منها ، فقال :

أرى بين الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري : أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما فقل قوموا فقد حان القيام
ففرّى عن رحالك ثم قولى على الإسلام والعرب السلام !

وكان هذا الحاكم العربي هو نصر بن سيار ، الذي ظلت أشعاره إلى اليوم تجرى على الألسنة والشفاه ، لتذكر العرب بأن سلامتهم ، وعزّة قوميتهم ، في التضامن والاتحاد ، وأن الفرقة سبيل لتسلل الأعداء ضدهم . فبعث إلى القبائل العربية في خراسان يحذرها من المتسللين ، وأنهم ليسوا من الموالى المخلصين ، أى ليسوا من الفرس الذين حفظ بعضهم

للعرب حسن معاملتهم ، وظلوا علي الولاء لسلطانهم . وجري نداء نصر بن سيار فى عظة بليغة ، جاء فيها :

أبلغ ربيعة فى مرو وإخوتها
أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم
كأن أهل الحجى عن فعلكم غيب
وتتركون عدوا قد أظلكم
ممن تأشب لا دين ولا حسب
ليسو إلى عرب منا ، فنعرفهم
ولا صميم الموالى ، إن هم نسبوا
قوم يدينون دينا ما سمعت به
عن الرسول ، ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلى عن أصل دينهم
فإن دينهم أن تقتل العرب

ولكن نداء نصر بن سيار ذهب أدراج الرياح ، مما مكّن لدعاة التسلل أن يبدأوا أعمالهم . وظهرت أولى الحركات العدائية إذ ذاك للأمة العربية ، وتعرف باسم الراوندية ، نسبة إلى مدينة راوند القرية من أصفهان ، حيث اتخذت من تلك المدينة مقراً

لها . واشتد نشاط الراوندية أثناء الدعوة السرية للعباسيين في أواخر العصر الأموى ، وبدأ دعاتها يتسللون عن طريق الشخصيات العربية المناهضة للأمويين . وكان أخطر اساليبهم للتسلل ، هو ترويج المعتقدات الفارسية القديمة القائلة بحلول الروح ، وانتقالها من شخص إلى آخر . فقالوا إن الروح الإلهية انتقلت إلى على بن أبي طالب وأبنائه من بعده ، حتى انتقلت أخيراً إلى أبي مسلم الخراسانى ، حامل لواء العداء ضد الأمويين ، باعتبارهم رمز سلطان العرب .

هجوم الراوندية على العرب :

ولما سقط البيت الأموى وقام البيت العباسى ، ظَنّ قادة الراوندية ، أن الجو صار خاليا لهم للنيل من الأمة العربية . ولكن انتقال الحكم إلى العباسيين لم يكن يعنى أكثر من انتقال السلطان من بيت آخر لا يقل عنه غيرة علي العروبة وقوميتها . وتابعت السلطات العباسية مراقبة حركات التسلل والضرب على القائمين بها فى عنف لا يقل عنه بطش الأمويين ، وفى غير شفقة أو هوادة . وفضلا عن ذلك ، فإن العباسيين كانوا على علم تام بأغراض تلك الحركات منذ أيام دعوتهم السرية ضد الأمويين فى خراسان .

وبدأت حركة الراوندية نشاطها السافر بعد ان أمر الخليفة : أبو جعفر المنصور العباسى بإعدام أبى مسلم الخرسانى ، الذى ثبت تآمره على الدولة العربية ، والذي حاول إنشاء دولة فارسية له في موطنه خراسان . فأقبل الراوندية على نشر سمومهم بين الناس ، وذلك بأن يدعو كل فرد من الراوندية الجماعة من الناس إلى منزله ، فيطعمهم ، ويسقيهم ويبيح لهم ارتكاب المحرّمات . ثم تمادت الراوندية فى تسللها حين قال أتباعها بأن الخليفة المنصور ، هو ربهم الأعلى الذي يطعمهم ويسقيهم ، كما نادوا بأن روح آدم عليه السلام حلت فى رئيس حرس الخليفة ، وهو عثمان بن نهيك . واستهدف قادة الراوندية بذلك تشويه سمعة الخلفاء العباسيين لدى العرب أنفسهم ، وليجمعوا حولهم ، بإحياء هذه التقاليد الفارسية القديمة ، أكبر عدد ممكن من الأنصار لضرب الأمة العربية عندما تسنح لهم الفرص المواتية .

ودأب قادة الراوندية على إرسال جماعات منهم لتطوف حول قصر المنصور فى الهاشمية ، لأن بغداد لم تكن قد تأسست بعد ، وتهتف قائلة : هذا هو قصر ربنا . وكان الهدف من ذلك هو دراسة خطط الحراسة العربية حول القصر ، تمهيدا لمهاجمته على حين غرّة ، وقتل الخليفة المنصور الذى أطاح بأبى مسلم ،

رأس حركات التسلل ضد القومية العربية . ولكن المنصور العباسي أدرك اهداف هذه الحركة الخطيرة ، واستدعى مائتين من رؤسائها والقى بهم فى السجن ، ثم أتبع تلك الخطوة الجريئة بإصدار أمر بألا يتجمع الراوندية عند قصره ، أو يطوفوا حوله .

وعندئذ عرف قادة الراوندية أن السلطات العربية ساهرة يقظة ، وأنه لا بدّ من عمل سريع لإنقاذ إخوانهم المسجونين ، وضرب الخليفة العربي . وتمخضت مؤامرتهم عن خطة خبيثة خطيرة تكشف عن إجادتهم اساليب التسلل والغدر . إذ حمل نفر من الراوندية نعشا ليس به أحد ، وسار وراءه ستمائة من أتباعهم ، متظاهرين بالدهاب لدفنه ، سالكين طرقا توصلهم إلى السجن الذى به زعماؤهم ، حتى لا ينتبه إليهم أحد أو يدرك حقيقة امرهم . وعندما بلغوا باب السجن رموا بالنعش ، وهجموا على السجن نفسه وأخرجوا زعماءهم منه .

واتجهت جموع الراوندية بعد ذلك مباشرة إلى الهاشمية ، وحاصروا قصر الخلافة بها ، وحالوا بينه و بين اي اتصال بالقوات الموجودة فى العاصمة نفسها . وحدث كل ذلك دون أن تدري المدينة شيئاً ، مما يدل على مقدرة الراوندية في إخفـاء خططها .

وأحكم المهاجمون حلقة الحصار حول القصر ، وسدوا كل المسالك المؤدية إليه ، لأنهم كانوا على خبرة واسعة بكل ذلك ، نتيجة دراساتهم السرية السابقة . وكان قصر الخلافة يحتاج إلى حارس من الخارج ، يمكنه اكتشاف أي خطر يتهدده قبل الاقتراب منه ، والاتصال بالقوات فى خارجه .

القضاء على الراوندية :

وأظهر الخليفة المنصور ومن معه بداخل القصر ، روحا عالية على نحو ما تتصف به الشخصيات العربية وقت الأزمات . فلم يدب الخوف إلى قلوبهم أمام هذا الهجوم الخاطف الغادر ، وطلب الخليفة نفسه فرسه ليركبه ويتوجه مباشرة لحرب الراوندية . وحاول عثمان بن نهيك قائد حرس القصر ، والذى سبق أن نادى اتباع الراوندية بأن روح آدم حلت فيه ، ان يتفاهم معهم ، ولكنهم قذفوه بنشّاب اصاب كتفه وتوفى بعد ذلك متأثرا بجراحه . ولم يفت ذلك فى عضد حراس القصر ، على الرغم من قلة عددهم ، وهجموا على الراوندية هجوما باسلا ، مليئاً بشتى مظاهر البطولة النادرة .

وفى هذا الوقت العصيب تجلّت قوة التضامن العربى ، الذى يبلغ

دائماً أوجه عند الشدائد . ذلك أن أحد قادة بني أمية ، وهو معن ابن زائدة ، وكان مختفيا من العباسيين ، تَـنَسـى كل أحقاده ومخاوفه عندما تسرب إليه أخبار حصار الراوندية لقصر الخلافة ، وأسرع لنجدة الخليفة من أخطر حركة تسلل ، تبغى الحط من شأنه ، باعتباره رمز العرب وسلطانهم . وسأل الخليفة حاجبه عن الشخصية التي جاءت إلي القصر تعرض خدمتها . فقيل له إنه : معن بن زائدة ، فقال الخليفة : رجل من العرب شديد النفس ، عالم بالحرب ، كريم الحسب ، وامر بإدخاله . فلما مَثَل مَعْن فى حضرة الخليفة بدأ يتدارس الخطط الكفيلة بدفع خطر الراوندية . وقال الخليفة لِمَعْن : إن الرأي عندى أن أخرج من القصر حتى يرانى الناس ، ويجدوا بذلك حماسة للهجوم على الراوندية ، أما إذا أقمت بالقصر تخاذل الناس ودبّ الخوف إلى نفوسهم .

وحاول معن ونفر من رجال الخليفة منعه من تنفيذ هذا الرأى ، تفاديا من غدر الراوندية ، وسهامهم التى يبغون بها شخص الخليفة أولا وقبل كل شىء . ولكن للمنصور العباسى أبى أن يَضِن بشخصيته فى تلك المرحلة الحرجة ، ورغب فى أن يقدمها قربانا للدفاع عن الأمة العربية . وعندئذ سرت موجة رائعة

من الحماسة فى نفوس الحراس العرب ، وبدأها معن بن زائدة نفسه ، الذى توجه فى جرأة نادرة نحو أحد رجال الراوندية ، وأرداه صريعاً . وتتابع الهجوم على الراوندية فى شجاعة وعنف ،حتي إنه لم تتجاوز الساعة حتى فني عدد كبير منهم وولى الباقون الأدبار .

واختفى معن بن زائدة بعد أن تم النصر للعرب ، ورأى أن مهمته قد انتهت . فكلف أبو جعفر المنصور أحد خاصته بالبحث عن معن ، وقال له ، اذهب وأعطه الأمان وأدخله على . وعندما جاء معن تلطف معه الخليفة ، وأخذ يشيد بطولته بين الحاضرين قائلا لكبيرهم : أسمعت بأسد الرجال . . .لو رأيت معنا علمت أنه من تلك الآساد ـ . فأجاب معن قائلا : « والله يا أمير المؤمنين ، لقد أتيتك وإنى لوجل القلب ، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بالراوندية وشدة الأقدام عليهم ، رأيت أمراً لم أره من خلق فى حرب ، فشد ذلك من قلبي ، وحملنى على ما رأيت » .

وبذلك تحطمت أولى حركات التسلل السياسى الكبرى ضد القومية العربية ، بفضل تضامن العرب جميعاً على اختلاف ميولهم السياسية ، ودفنهم الأحقاد وانحادهم فى سبيل نصر قضيتهم العامة . فلم يفكر معن بن زائدة مثلا فى انتهاز المأزق الذى وقع فيه

العباسيون والعمل على الانتقام ، وإنما فكر بعروبته الصادقة ، واعتبر نفسه جنديا يدافع عنها ، فى كل وقت ، وتحت أية راية مهما كان لونها ، مادامت تبغى سلامة الأمة العربية وبناءها . واندثرت جماعة الراوندية إلى الأبد ، وظلت القومية العربية عالية الرأس بفضل شجاعة ابنائها ، وسهرهم على حمايتها والدفاع عنها .

الخُرَّميـــة

جماعات الخرمية :

جرت أحداث التسلل السياسى ضد القومية العربية تباعا أشبه بالموج المتلاطم ، لا تكاد تنكسر واحدة حتى تصل أخرى تحمل حقداً أشد وفى عنف بالغ . فإذا كانت الراوندية فاجأت الأمة العربية فإن حركة أخرى ، تعرف باسم الخُرَّمية أعدت جماعاتها فى سرّية وتؤدة من أجل الهجوم على العرب ، ولتتجنب المصير الذي لقيته الحركة السالفة . والخرمية حركة أخذت اسمها من زوجة مزدك، زعيم الإباحية القديم عند الفرس واسمها خُرَّمَا . ذلك أن تلك الزوجة حملت نشاط زوجها الهدام ، بعد أن قتله كسرى قباذ ، وتابعت نشر مفاسده .

ووجد دعاة التسلل ضد القومية العربية فى إحياء تعاليم خرّما زوجة مزدك سبيلا لجمع الأنصار من الفرس ، ثم إعدادهم للهجوم على الأمة العربية ، بعد أن يتشربوا أغراض هــذه الحركة الهدامة .

وظلت جماعات الحرمية تعمل فى الخفاء ، بعد فشل الراوندية دون أن تتمكن من الانطلاق لافتقارها إلى قيادة منظمة . وسرعان ما ظهر وسط أحداث النزاع بين الخليفة الأمين العباسى وأخيه المأمون شخصية خطيرة من بين جماعات الحرمية ، شأن قادة التسلل ، الذين يجدون مرتعهم الخصيب أيام الخلاف فقط فى الصف العربى .

دسائس بابك الخرمى :

كان قائد تلك الحركة الثانية فى ميدان التسلل ضد العرب هو بَابك ، الذى شَبّ فى وَسَطٍ هيأه لتولى رئاسة تلك الجماعات الدنيئة الخطيرة ، ومتابعة رسالتها ضد الأمة العربية . ذلك أن بابك نشأ فى قرية بلال أباذ قرب المدائن ، عاصمة فارس قديماً ، من أبوين تزوجا بعد فضيحة جنسية ، انتشرت أخبارها وأصبحت موضع ألسنة الناس . ثم أقام بابك مع امه ،

التي جعلت من منزلها مأوى لفقراء المسافرين من الناس . وبعد أن كبر بابك ألقت إليه الأحداث فرصة للانضمام إلى جماعات الحرمية ، ذلك أن رئيس الخرمية بالقرب من بلدته ضل طريقه في إحدى الغابات المجاورة ، والتجأ إلى منزل بابك ليقضي به الليل. وتحدث هذا الزعيم الحرمي مع بابك ، ولمس فيه خبثاً فطريا وجرأة تجعله صالحا للانضمام إلى تلك الجماعة الفاسدة . فكان شرط الانضمام للخرمية هو الاتصاف بالمكر والدهاء والقدرة على التسلل بين الناس. وفي صباح اليوم التالي أخذ رئيس الخرمية بابك معه ، واخذ يدربه على التسلل ويلقنه مبادىء جماعته المعادية للأمة العربية .

وبعد أن توفي زعيم الخرمية صار بابك المرشح الوحيد للرئاسة من بعده . ذلك أن زوجة الزعيم المتوفى كانت قد عشقت بابك ، ووجدت في موت زوجها فرصة لمساومة بابك على الزواج منها مقابل تمهيد السبيل له لرئاسة تلك الجماعة . فذهبت إلى بابك ليلة وفاة زوجها وقالت له : « إنك جلد شهم ، وقد مات زوجي ولم يعلم بذلك أحد ، وإني سأجمع الأتباع غداً ، وأخبرهم ان زوجي قال لي ، إني أريد أن أموت هذه الليلة ، وإن روحي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك ، وتشترك مع روحه ،

وإنه سيبلغ بنفسه وبكم أمراً لم يبلغه أحد، ولا يبلغه بعده احد، وإنه يملك الأرض ويقتل الجبابرة، ويرتفع به صوتكم». وقبل بابك هذا العرض لأنه يحقق له رئاسة الخرمية، وبالتالى لمّ شملها تحت لوائه، استعدادا للهجوم على الأمة العربية.

وفى اليوم التالى جمعت زوجة زعيم الخرمية رؤساء الجمعيات السرية بها وأخبرتهم بما سبق أن دبرته مع بابك. وعندما ثارت المتاعب فى ذلك الاجتماع لم تجد تلك الزوجة من سبيل لإقناع المعرضين غير تخويفهم من القومية العربية وأهلها. فقد قال أحد الحاضرين للزوجة: كيف لم يَدْعُ بِنَا زعيمنا ويوصى لنا بما يريد عندما حضرته الوفاة؟. فقالت الزوجة: ما منعه من ذلك إلا أنكم كنتم متفرقين فى منازلكم من القرى، وأنه إن بعث وجمعكم، انتشر خبره، فلم يأمن عليكم بطش العرب، فعهد إلي بما أنا أؤديه إليكم. وعندئذ لم يجد أتباع الخرمية أمام تخويفهم بالعرب غير التسليم بما قالته تلك الزوجة الماكرة، ونادوا ببابك رئيساً أعلى لهم.

وبتنصيب بابك رئيساً لطائفة الخُرّمية دب النشاط الهدام مرة أخرى، بُغية النيل من الأمة العربية. ورسم بابك الخطة لأتباعه من أجل العمل ضد العرب، وانتزاع السلطة منهم

وتحويلها إلى الفرس . فخثهم على إخفاء مقاصدهم حتي لا تفطن إليهم السلطات العربية وتضربهم قبل أن يتموا استعدادهم ، على نحو ما حدث للراوندية . ثم لَقّن الخرمية تعاليم تحض على تعظيم ابى مسلم الخراسانى ، باعث حركات التسلل ضد القومية العربية ، وبالتالي ذَمّ أبى جعفر المنصور ، الذي اطاح بالقائد الأكبر للتسلل ، وهادم الراوندية كذلك . وأتم بابك تنظيم طائفته بأن جعل لكل جماعة منهم رؤساء يرجعون إليه ، وهؤلاء الرؤساء يأتمرون بدورهم بأمره وحده ، ودأب على إرسالهم باستمرار إلي شتى الجهات لإعداد العدة لمهاجمة الأمة العربية .

اتصال الخرمية بالقوى الاستعمارية :

بدأ بابك ، بعد ان اطمأن إلي استعدادته يبعث بعصاباته الحربية من فارس للهجوم على البلاد العربية . وعندئذ رأى الخليفة المعتصم العباسى أن الواجب يقضى بحصار هذا المركز الخطير ضد الأمة العربية قبل أن يستشرى شرره وناره . ونظمت السلطات العربية جهادها بإعداد فدائيين يمكنهم التوغل بين أوكار الخرمية ، ومفاجأة طلائعها كذلك وهى فى عرض الطريق . وبذلك وقع كثير من رجال الخرمية اسرى فى أيدى

العرب ، وعرفت السلطات العربية الكثير من قادة بابك وأعوانه . واستطاع الفدائيون العرب مفاجأة أعظم قادة بابك وأشدهم خطورة ، ويدعى طرخان والقبض عليه وإعدامه ، إذ ظلوا يراقبون حركات هذا القائد حتى علموا انه سيقضى الشتاء فى موطنه ، استعدادا للعمل ضد الأمة العربية فى مطلع الربيع ، وفى جوف الليل هاجموه وحملوه أسيراً إلى السلطات العربية التى تخلصت من هذه الشخصية الفاسدة ، والتى كانت الساعد الأيمن لبابك .

وادرك بابك انه لن يستطيع الصمود وحده أمام الأمة العربية ، ومقاومة قواتها ، ولذلك التجأ إلى دولة الروم (البيزنطيين) ، وطلب من أباطرتها المساعدة ضد الأمة العربية . وكانت هذه الدولة بدورها تتحين الفرص لتوسيع ممتلكاتها فى جنوب آسيا الصغرى على حساب البلاد العربية فى شمال الشام ، وبلاد العراق كذلك ، ووجدت فى دعوة بابك سبيلا لتحقيق مآربها الاستعمارية . وانتهز الروم مسير الجيوش العربية لحرب بابك ، وهجموا على شمال العراق ، وهى خلو من أسباب الدفاع القوى ، وأملا فى الاتصال بقوات بابك فى شمال فارس . وتولى الإمبراطور البيزنطى « ثيوفيل » قيادة جيوش الروم ، مما يدل

على خطورة التحالف بين الروم والخرمية ضد البلاد العربية . ولكن قوات الروم تعثرت بفضل المقاومة العربية ، وعجزت عن الاتصال بالخرمية ومساعدتها ضد الجيوش العربية . ولذا عاد الإمبراطور « ثيوفيل » تاركا بابك يلقى وحده جزاءه المحتوم .

انتصار القومية العربية :

لم تغير حملة الروم شيئاً من خطط السلطات العربية ، ذلك أن الخليفة المعتصم لم يشأ أن يبادر بالانتقام والأخذ بالثأر من الإمبراطور البيزنطى ، وإنما آثر أن يترك ذلك إلى حين الانتهاء من حركة التسلل الخطيرة التى قام بها الخرمية . وكشف المعتصم بذلك عما يتحلى به العرب من أفق واسع وإدراك سليم للمخاطر الحقيقية التي تواجه أمتهم . وأخذت الجيوش العربية تخرج تباعاً للهجوم على قلاع بابك ، وأوكاره العديدة . ولم تكن تلك المهمة العربية سهلة أو يسيرة ، لأن الخرمية اتخذت معاقلها وأوكارها فى مناطق حصينة على قمم الجبال ، وأجادت إخفاءها فى دقة ومهارة تامة .

ورسم القادة العرب خطتهم بمهارة فائقة كذلك ، وفى حذر يفوق أساليب الخرمية . فأنشأوا نقطا عديدة للمراقبة على المسالك

والطرق المؤدية لقمم الجبال ، وألقوا القبض على كل من يشتبه في أمره عند اجتيازها . وبذلك صار بابك محاصراً حصاراً شديداً ولا يستطيع تنظيم العمل بين كائنه المبعثرة في شتى أنحاء الجبال . وفى الوقت نفسه استطاعت المخابرات في الجيش العربي اكتشاف مقر بابك نفسه ، والطرق السرية المؤدية إليه . وعلى هدي هذه المعلومات انطلق الفدائيون العرب يهجمون علي مقر بابك نفسه ، ومن ورائها القوات العربية الرئيسية . وعندما اقتحمت القوات العربية الحصون الأمامية للخرمية فرّ بابك ، تاركا أتباعه يلقون وحدهم الأسر والتشريد .

ولكن السلطات العربية فى فارس عرفت مكان اختفاء بابك ، وبعثت بفرقة على عجل القت عليه القبض . وحاول بابك الفرار مرة اخرى ، ولكن رئيس الشرطة قال له متهكما : «مدّ رجليك أيها الملك ، وأوثقه بالحديد . . . . ثم سخر منه أيضا قائلا لبابك : « ما أنت إلا راعى غنم وبقر ــ وهى الخدمة التى اشتغل بها بابك قبل انضمامه إلى الخرمية ــــ مالك والتدبير والملك ونظم السياسات » . وبلغ نبأ القبض على بابك إلى العاصمة العربية ، فهلل الناس فرحا وتبادلوا التهنئة بانتهاء الكرب العظيم الذى يتهدد بلادهم .

واعد الخليفة المعتصم موكبا للتشهير بهذا العدو اللدود ، وليعرضه على الناس حتى يطمئنوا على سلامة أمتهم ، وتم الاتفاق على أن يسير بابك فى شوارع العاصمة راكبا فيلا حتي يتمكن الجميع من مشاهدته . وبعد أن انتهى سير الموكب أمر الخليفة بإعدام بابك ، جزاء على حركته الخطيرة التي دأبت علي التسلل ضد البلاد العربية مدى عشرين عاما متتالية . وأرسلت السلطات برأس بابك إلى سائر العواصم العربية ليراها الناس ، ويشاهدوا بانفسهم انتهاء أخطر حركة للتسلل ضد قوميتهم الراسخة الأوتاد .





(١) جماعة الحشاشين

باب التسلل العقائدى :

فزع أعداء القومية العربية من الضربات القاصمة التى نالتها حركاتهم السياسية ، وأقبلوا فيما بينهم يتدارسون أسباب هذا الفشل الذريع ، جاهدين فى وضع خطة جديدة تمكنهم من متابعة عدائهم ، والتنفيس عن حقدهم الأسود . وتولى هذه الدراسة الجديدة نفر من الفرس ، ممن سبق أن القت بهم السلطات العربية فى السجون بسبب اشتراكهم فى المؤامرات والفتن ضد الأمة العربية . وتمخضت دراساتهم عن أن سبب الفشل هو اعتماد قادة حركات التسلل السياسى على الفرس أنفسهم ، واتخاذ مراكز تلك الحركات فى فارس نفسها . إذ أتاح ذلك للسلطات العربية اكتشاف طلائع التسلل ،

والمبادرة إلى وأدها وهى ما تزال فى دور الرضاع .

ولذا رسم أعـداء الأمة العربية خطة تسللهم الجديد على أساس وضعها فى قالب يصعب فهم حقيقة أمره ، والبحث فى الوقت نفسه عن نفر من العرب يتخذون من آرائهم ستارا يخفى سمومهم عن أولى الأمر فى البلاد العربية .

فـكان شعار الخطة الجديدة أن يسير اعداء القومية العربية فى تسللهم على قاعدة أن يظهر الفرد منهم غير ما يبطن ، فيعلن حماسته وغيرته على التقاليد العربية ، على حين يبطن العمل على إحياء دينه القديم بين الأشخاص الذين يقعون فى شراكه او يتأثرون بأقواله . ويطلق على هذه الحركة الجديدة اسم : « الدعوة الباطنية » ، والتى ثبت انها عنصر خطر فى حرب القومية العربية . ذلك أن دعاة الباطنية تسللوا تحت ستار أن لـكل ظاهر باطنا لا يفهمه إلا اناس مخصوصون ، ويمكنهم بذلك الالتواء فى إجاباتهم إذا احسوا خطر اكتشاف أمرهم .

ووجد أنصار هذه الحركة الخطيرة ثغرة مواتية للقيام بنشاطهم الهدام ضد البلاد العربية فى فرقة الشيعة ، التى تنادي بأن الأئمة من بيت على بن أبي طالب أحق بالخلافة من العباسيين. إذ دخل نشاط هذه الفرقة فى ذلك الوقت من تـلـوّن حركات

التسلل ، فى صورة سهلت على اعداء الأمة العربية العمل ضد سلامتها . ذلك أن اتباع الشيعة تعرضوا إلى اضطهاد شديد من جانب العباسيين ، دفع أئمتهم إلى وضع نظام لحمايتهم ، يعرف باسم « التَّقِيَّة » . ويقصد بذلك المبدأ الشيعي أن المرء إذا خاف علي نفسه وماله من عدوه ، فله الحق فى أن يظهر غير ما يبطن ، ويباح له الالتجاء إلى الكتمان والمداراة ، والتظاهر بما ليس هو الحقيقة ، ولا سيما إذا اشتد به التهديد والوعيد . وصار مبدأ « التقية » بذلك جزءا يكمل تعاليم الشيعة ، وركنا هاما من مذهبهم وعقيدتهم .

ودخل مبدأ التقية فى دور التنفيذ العملى فى الوقت الذى رسم فيه قادة التسلل خطط دعوتهم الباطنية للهجوم على الأمة العربية . ذلك أن أئمة الشيعة من سلالة على بن أبى طالب عمدوا إلى إخفاء شخصيتهم حتى لا يمتد إليهم بطش العباسيين ، وأخذوا يعملون فى الستر أو الخفاء عن طريق دعاة لهم لا يصح لهم بأى حال من الأحوال إفشاء اسم الإمام الذى يدعون له ويعملون من أجله ، وإنما عليهم تلقين الناس فقط تعاليمه ، ويحثونهم على التذرع بالصبر ، وانتظار خروج هذا الإمام المستور ، أى المختفي ، فى الوقت المناسب ليقضى على المفاسد ويعيد العدالة

والنظام . وبذلك صار للشيعة الحق فى العمل وفق نظام التقية ، اى استخدام شتى الأساليب التى تخفى حقيقة أمرهم عن السلطات العباسية ، حتى أصبح مبدا التقية آخر الأمر هو النظام السرى للشيعة ، بحيث إذا أراد الإمام المستور تنفيذ خطة او إحداث ثورة اعلم أصحابه بما عزم عليه دون ان يستطيع أحد اكتشاف أمره ، ويظل الأمر أيضا في طى الكتمان إلى ان تحين ساعة العمل المتفق عليها .

ويعزى إلى أحد الأئمة من سلالة علي بن ابى طالب ، وهو الإمام السابع من بعد علىّ نفسه ، ويعرف باسم إسماعيل بن جعفر الصادق ، تنظيم مبدا التقية حتى اصبح مؤسس جماعة جديدة من فرقة الشيعة نسبت إليه ، وأطلق عليها اسمه وعرفت باسم طائفة « الإسماعيلية » . وراى أعداء العرب فى طائفة الإسماعيلية ومبادئها التربة الخصبة لبذر بذور حركتهم التسللية الجديدة ، والعمل تحت لواء أئمتها المستورين ، اى المتخفين ، وتحويل انصار تلك الطائفة ، ولا سيما من أبناء الأمة العربية إلى حركتهم .

زعيم الحشاشين :

وكان على رأس دعاة التسلل فى مظهره الجـديد الخطير ، فارسى اسمه : الحسن بن الصباح . إذ ولد فى مدينة الري بفارس (حوالى سنة ٤٣٠ هـ) ، في أسرة اتخذت التشيع عقيدة لهـا لتستطيع التسلل عن طريقها ضد الأمة العربية . واشتهر أهل الحسن الصباح بإجادة استخدام مبدأ التقية ، فاظهروا بين الناس تمسكهم بالمذهب السنى الذى كانت عليه السلطات العباسية ، إمعاناً منهم فى التخفى وستر أغراضهم الحقيقية . وكان والد الحسن الصباح نفسه حجة فى التسلل تحت مبدأ التقية ، فبعث ابنه نفسه إلى المدارس السنية ليختبر اهلها ، ويعرف الكثير عن احوال أبناء العرب بها .

وعندما كبر الحسن بن الصباح تلقّن أصول عقيدة طائفة الإسماعيلية ، وأظهر استعداداً عالياً فى المكر والدهاء والمقدرة على استخدام مبدأ التقية ، أى التخفى التام وستر جميع نواياه واغراضه عن اقرب للقربين إليه . وعلم فى ذلك الوقت أن دولة أسسها الشيعة فى مصر وهى دولة الفاطميين ، وعوّل على الذهاب إلى مصر ودراسة أحوال هذه الدولة ، التى غدت من اقوى

الدول المدافعة عن العروبة وقوميتها . وكانت الخلافة العباسية فى بغداد ضعيفة فى ذلك الوقت مما جعل مقاليد الدفاع عن الأمة العربية تؤول إلى القاهرة .

وعندما وصل الحسن الصباح إلى القاهرة ارتابت السلطات العربية فى أهدافه ومقاصده . وكان الوزير الفاطمى الذى اكتشف امر هذا التسلل الخطر هو « بدر الجمالى » ، إذ رأى أن الحسن الصباح يبدى اهتماما بالشئون الداخلية للدولة ويعمل على الاتصال الريب بالناس ، مستهدفاً إثارة الفرقة والريبة فى نفوسهم . واستطاع هذا الرجل الخطر الاتصال بأبناء الخلفاء الفاطميين انفسهم ، وبدأ يثير البغضاء فى قلوبهم ضد وزرائهم . ودبر الوزير بدر الجمالى مؤامرة للإيقاع بالحسن الصباح والزّج به فى السجن . إذ اتفق الوزير مع نفر من الناس ممن دابوا على حضور جلسات الحسن الصباح على مناقشته فى آرائه ، وهتك سرّه ، وكشف حقيقة امره للناس . ولكن هذا المتسلل الخطر علم بالمؤامرة ، وهرب من مصر بعد أن أدرك يقظة السلطات العربية بها ، وشدة مراقبتها للمتسللين إلى الشرق العربى .

وعاد الحسن الصباح إلى فارس وقلبه مملوء بالحقد على السلطات العربية فى مصر ، لأنها سدّت فى وجهه سبل التسلل إلى الشرق

العربى، وفى بلاده بدأ يضع الخطط العملية للتسلل مرة اخرى إلى الشرق العربى، والانتقام من القَـوَمَـيَّةِ على الأمة العربية هناك . وهداه تفكيره إلى الاستيلاء أولا على القلاع الحصينة فى فارس واتخاذها اوكاراً يدرب فيها أتباعه على اساليبه الجديدة لمهاجمة البلاد العربية . وكان السلاح الجديد الذى لقَّنَه لأتباعه هو الاغتيال الدنىء، شأن الخونة الذين يعملون فى الظلام ، لأنهم لا يستطيعون الإبصار في ضوء القومية العربية الخاطف .

واستطاع دعاة الحسن الصباح الاستيلاء على القلاع الحصينة فى شمال فارس ، ومنها قلعة مشهورة بمنعتها التامة ، واسمها قلعة « أَلَـمُـوت » . إذ تقع تلك القلعة على قمة عالية وحولها وهاد ، بحيث لايستطيع أحد الوصول إليها إلا بعد جهد جهيد. وجاءت سيطرة الصباح على قلعـة ألموت نموذجا يكشف عن خصاله الخبيثة .إذار سل أنصاره متسللين إلى القلعة ، وأغروا جندها على توجيه دعوة إلى الحسن الصباح بالحضور . ولما وصلت الدعوة ، ذهب الحسن إلى القلعة متخفياً ، خوفا من أية مفاجاة تعترض سبيله . وحين دخل القلعة لم يعرفه أحد من الناس سوى أتباعه المقربين ، وتظاهر امام الجميع بانه نائب الحسن بن الصباح وقضى عدة أيام بدرس القلعة دراسة دقيقة و يَتَبَـيـن معالمها ،

ويفحص حصونها ويقف على أحوال الناس بها . ولما تأكد من صلاحيتها لأغراضه كشف عن شخصيته ، واتخـذها مقراً للتسلل القبل ، وميداناً لتدريب أتباعه .

تدريبات الحشاشين :

اتخذ رجال الحركة التسللية اسم الحشاشين من التدريبات التي وضعها لهم زعيمهم الحسن الصباح . واستهل تدريباته بأن اعتذر عن مقابلة الناس إمعاناً فى بث الهيبة في النفوس ، واقتصر على إصدار الأوامر إلى دعاته المخلصين . ومن القرارات التي نتج عنها اسم الحشاشين ، هو أن الحسن الصباح اصدر أمراً بأن تزرع سفوح الجبال بالقرب من قلعة الموت ، وأينعت بالأزهار حتى صار يطلق على المنطقة اسم : « جنة شيخ الجبل » وهو الحسن بن الصباح . وترددت الشائعات بان شيخ الجبل انشأ فى واد بين جبلين بالقرب منه حديقة فسيحة ، شـيد فيهـا مقصورات حسانا ، جعل عليها قبابا بديعـة الشكل وزخرفها بالنقوش ، وجعـل فى حديقته انهاراً من خمر ، وحولها نساء جميلات يلهون ويعزفن للوسيقى الشجية . ثم إن الفرد من أتباع الحسن الصباح إذا أظهر ولاء واستعداداً طيباً لتفهم أهداف

الحركة ، يعطى مادة الحشيش المخدرة ، ثم ينقل وهو فى غيبوبته إلى الحديقة الجميلة ، فإذا فتح الفرد منهم عينيه أحس أنه فى الجنة التى وعد بها المتقون ، وأن حق الإقامة بها وقف على شيخ الجبل وحده .

ولذا أطلق بعض الناس على عصابات الحسن الصباح اسم : الحشاشين ، نسبة إلى تعاطيهم مادة الحشيش قبل دخولهم جنتهم المزعومة ، على حين أطلق عليهم الأوربيون اسم « السفاكين » (الذي حُرِّف إلى الحشاشين) ، بسبب إجادتهم الاغتيال ، الذى صار سمة اختصّوا بها وحدهم من دون الجمعيات السرية المعاصرة لهم .

وكان الحسن الصباح يختار أتباعه من الشبان ، الذى يمكن تضليلهم بشتى سبل الإغراء . ثم يدرب الفرد منهم على استعمال الأسلحة المعروفة إذ ذاك ، ولا سيما الضرب بالخناجر. وفى الوقت نفسه تعلم كل عضو فى تلك العصابات كيف يخفى أمره تماما عن الناس ، وإذا وقع أحدهم فى قبضة الشرطة فيجب أن يقتل نفسه فى الحال ،وإذا لم يتمكن فعليه ألا يبوح لأحد بأمر عصابته ،وألا يتفوه بكلمة واحدة . واستخدم الحسن الصباح القسوة التامة فى تدريب أتباعه ، حتى إن الفرد منهم ليغمد خنجره في صدره

مباشرة حال سماعه الأمر بذلك من شيخه ، على حين يرمي آخر بنفسه من نافذة بأعلى القلعة إذا طُلب منه القيام بذلك . وصارت جماعة الحشاشين بذلك مصدر فزع عند جيرانهم ، ولا سيما في إقليم العراق ، حيث سقط كثير من رجال الخلافة العباسية صرعى خناجرهم . وعبر أحد المؤرخين عن الفزع الذى انتاب الناس من الحشاشين بقوله : « إنهم أخافوا السبل وأجالوا على الأكابر . . . ولم يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة . »

يقظة مصر لتسلل الحشاشين :

وعلى الرغم من مجهودات الحسن الصباح ، فإن الحشاشين فشلوا فى التسلل إلى الشرق العربى بفضل يقظة السلطات فى مصر. ذلك أن الدولة الفاطمية وقفت سدا منيعا ضد هذه الحركة الخطيرة ، وحالت بين أتباعها السفاكين من التمادي فى إنزال الرعب بالناس . فالسلطات العربية فى مصر أدركت بنفسها نوايا الحسن الصباح الدنيئة ضد الأمة العربية ، ولم تمكنه من النيل منها . وكان قائد هذه الحركة يبغي اختطاف أحد أبناء البيت الفاطمي من مصر ، وحمله إلى مقره فى قلعة الموت ليجعل منه

منافسا للسلطات العربية فى القاهرة ، ويستخدمه مطية في التسلل ضد القومية العربية .

وجاءت عصابات الحشاشين تترى إلى مصر ، واخذت تتحايل على تنفيذ أوامر شيخها . غير أن السلطات العربية بالقاهرة تعقبت نشاطهم ، واكتشفت دسائسهم فى كل مكان قبل أن يمتد خطرها إلى سائر الأرجاء . فظل أبناء البيت الفاطمى بمعصم عن خناجرهم ، كما أن أفراد الشعب تعاونوا مع السلطات الرسمية فى القبض على أفراد تلك العصابات التي تسللت إلى داخل البلاد . ودبّ اليأس إلى الحسن الصباح ، الذى وجد أن مشاريعه قد انهارت فى النيل من الأمة العربية بسبب جهاد مصر . إذ استهدف من اختطاف أحد أبناء البيت الفاطمى إعطاء دولته فى فارس صبغة شرعية ، وتحويل أنظار العرب إليها بدلا من القاهرة .

وتجلّى ياس الحسن الصباح وتخبط سياسته فى أواخر أيامه ، إذ قتل ابنه الأكبر ، الذى اتُّهِم فى مؤامرة ضد الحشاشين ، وهجر زوجته ، وانقطع إلى وحدة قاتلة ، بعد ان صار بلا وريث لحركته . وعلى الرغم من اختياره لنفر من رجاله المقربين ليتولوا متابعة رسالته الفاسدة بعد موته ، فإن حركته صارت رهنا

بحياته فقط ، لأن قسوته جعلت منه شخصا منعزلا عن الجميع . ولذا ما إن توفى الحسن الصباح حتى اخذت جماعات الحشاشين فى الانهيار ، وانحسرت موجة حركتهم الخطيرة عن البلاد العربية . وفى الوقت نفسه ظهرت فى مصر شخصية صلاح الدين ، الذى استولى على مقاليد الأمور من الفاطميين ، وأسس لنفسه دولة فى مصر ، قُدر لها أن تنهض بعبء الدفاع عن الأمة العربية ضد أعدائها من الحشاشين ، وغيرهم من القوى الأوروبية التى جاءت جيوشها الصليبية تبغى احتلال الشرق العربي ، إذ كتب التاريخ لصلاح الدين صفحة رائعة فى سبيل سد السبل أمام فلول الحشاشين والقضاء على الصليبيين كذلك ، وجعل علم القومية العربية خفاقا ، يبعث الهيبة والرهبة فى نفوس أعدائها .

(ب) القرامطة

ظهور حركة القرامطة :

نشأت حركة القرامطة فى مهاد طائفة الإسماعيلية الشيعية علي نحو ما قامت به جماعة الحشاشين . ويرجع اصل هذه الحركة الثانية إلى نشاط رجل فارسى خطر معروف بكراهيته للعرب

واسمه عبدالله بن ميمون القدّاح . وبدأ هـذا الزعيم الثانى تسلله ضد الأمـة العربية بالانضمام إلى طائفة الإسماعيلية ، التي صارت عشا آمنا لـكل راغب فى النيل من البلاد العربية . فادعى عبد الله بن ميمون انه يدعو للإمام المستور ، اى المختفي ، من الشيعة ، وانه لا يستطيع الإفصاح عن شخصية هذا الإمام ، وإنما اشاع اقتراب ظهوره ، وأنه سينقذ الناس من متاعبهم .

ولجأ عبد الله بن ميمون إلى السرية التامة كذلك فى التسلل عن طريق الدعوة للإمام المستور حتي لا يثير شكوك السلطات العربية نحوه . فكان الشخص الراغب فى اعتناق المذهب الجديد يؤدى قسما بألا يفشى ما يلق إليه من أسرار ، وإلا صار عرضة للقتل ونهب أمواله . ووضع هذا الزعيم الخطر سبـع مراحل كان على الفرد أن يجتازها قبل أن يصبح عضوا فعالا فى عصاباته ، ضمانا منه للسرية التامة . وبدأ عبد الله بن ميمون يتصل بكبار رجال الفرس الحاقدين على العرب ، ويجمع منهم الأمول للانفاق علي حركته السرية ضد الأمة العربية .

وكشف قائد هذه الحركة الخطيرة عن اهدافه ووسائله من أجل التسلل لأحد كبار أهل فارس ، واسمه دندان ، حين طلب منه معونة لحركته ، إذ قال لدندان : إن لى أتباعا أبثهم

فى البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع ، ويدعون إلى ما نريده من الهجوم علي العرب . وإن نجاح حركتنا تعتمد على الخداع ، فأشير عليك ألا تظهر ما فى نفسك للعرب ، والزم التشيع والبكاء على اهل البيت (اى بيت النبي ، ويعنى بهم إذ ذاك أبناء علي بن أبى طالب) ، فإن ذلك سبيل لاكتساب كثير من أتقياء العرب إليك . وعندما تشعر بكثرة أنصارك وإخلاصهم لك يجب أن تخطو الخطوة الثانية وهى تشويه سمعة كبار رجالات العرب ، ولا سيما الخلفاء الراشدين ، وغيرهم من بناة الأمة العربية والساهرين على سلامتها . وبذلك تستطيع صرف أذهان العرب عن ماضيهم المجيد ، وبالتالى هدم اعتزازهم بعروبتهم .

وحصل عبدالله بن ميمون من دندان على هبة مالية بلغت نحو مليوني دينار ،أخذ يصرف منها على انتقاء الدعاة الصالحين لتنفيذ سياسته التسللية . وانتقى أولئك الدعاة من الأشخاص الذين يجيدون فنّ الإلقاء بما يؤثر على السامعين ،ومن أصحاب الأصوات ذات الرنة التي يمكن ان تنفذ إلى الأعماق ، وذلك فضلا عن توافر الذكاء النادر لديهم ، والقدرة على عدم إثارة الشكوك حولهم . ودرب أولئك الدعاة أيضاً على شتي فنون التخفى ،

والتأويل ، إذ القدرة على التاويل تنقذهم من الأسئلة الحرجة ، أما التخفي فيهيء لهم سبل التسلل فى زى التجار أو المتصوفين ، وكذلك الزراع والصناع والعلماء ،كل ذلك حسبما يقتضيه الوضع والمكان والزمان . وساعد أولئك الدعاة طبقة أصغر منهم ، مهمتهم تمهيد الطريق بإثارة الشكوك حول عقائد الناس وذلك بالدخول معهم فى جدل أجوف ، وعندئذ يتدخل كبار الدعاة باعتبارهم المنقذين للناس من الضلال .

وظهرت اولى ثمار تسلل عبد الله بن ميمون فى إقليم العراق الذى صار بمثابة البوابة التقليدية للمتسللين الفرس ، إذ بعث هذا الزعيم الفاسد بأحدكبار دعاته وهو حسين الأهوازى إلى الكوفة، لأنها اشتهرت منذ أيامها الأولى بالتشيع لآل على بن أبى طالب ، فضلا عن أن بها جماعات من المزارعين السذج ، مما يسهل خلق أنصار عديدين بينهم هناك، ويمكن عن طريقهم التسلل إلى سائر أنحاء العراق . وكان حسين الأهوازى فعلا من اخطر المتسللين ، المدربين خيرتدريب، إذ حين دخل الكوفة تظاهر بالنسك الشديد والورع التام ، وآثر الابتعاد عن كسب المال ، واشتغل فى نسج الخوص ليكسب قوته ، مما جذب إليه قلوب الناس الذين انخدعوا فى مظهره البراق . وكان ممن وقع فى حبائل حسين الأهوازى

فلاح اسمه : حمدان بن الأشعث ، أطلق عليه الناس اسم قرمط ، بسبب تقارب خطوات مشيته أثناء السير . وكان هذا العراقى ممن يؤمن بنظرية الأئمة للستورين ، أى المختفين فى مذهب الإسماعيلية ، وصار بذلك فريسة سهلة لتلقى آراء الحسين الأهوازى .

وبدأ حسين الأهوازى تسلله عن طريق حمدان قرمط ، بأن قابله أثناء عودته من حقله بطريقة تبدو كأنها جاءت عفوا . وكان حمدان قرمط يجر ثوراً وفى طريقه إلي منزله حين قابله حسين الأهوازي . وبعد أن التقيا وتماشيا ساعة ، قال حمدان للأهوازي : أراك جئت من سفر بعيد ، ويبدو أنك متعب جدا فاركب ثورى لتستريح . فقال الأهوازى : لم أومر بذلك ، فقال حمدان : كأنك تعمل بمقتضى أمر لديك : ، قال الأهوازى ، نعم ، فقال حمدان : ومن يأمرك وينهاك؟، قال مالكى ومالكك ومالك الدنيا والآخرة . وعندئذ بُهِتَ حمدان قرمط ، لأن إجابة هذا المتسلل تحمل معنى ظاهراً وباطناً، ولكن الأهوازى تدارك الموقف ، وقال لحمدان : يا هذا ، ما عليه ما ذكرت إلا الله. فقال حمدان صدقت . وبذلك اطمأن الأهوازى إلى قبول حمدان قرمط لآرائه ، وبدأ يخطو معه الخطوة التالية فى ميدان التسلل .

وأثبت حسين الأهوازى قدرة خطيرة فى استغلال العقائد من أجل التسلل ، إذ حين رغب فى أن يخطو الخطوة الثانية مع حمدان قرمط ، قال له : إنى أريد أن أذهب إلي قرية كذا ، وما هو الطريق المؤدى إليها ، فقال له حمدان : وماذا تريد فى تلك القرية ؟فقال الأهوازى : إن معى كتابا به سر من أسرار الله ، وأمرت بالذهاب إلى تلك القرية لأغنيي أهلها ، واهديها إلى ما فيه نفعها . فقال حمدان : نشدتك الله ، أرجو أن تعطينى من هذا العلم ، وتنقذنى به . فقال الأهوازى : لا يجوز ذلك إلا إذا اخذت عليك عهداً وميثاقا بالا تبوح بما ألقيه إليك لأحد . فأجابه حمدان لما يريد واصطحبه معه إلى منزله .

واتخذ الأهوازى من منزل حمدان قرمط مركزاً للتسلل بين أهالى العراق ، ويأخذ على كل من يتوسم فيه الصلاحية لآرائه العهود والمواثيق بالكتمان الشديد . وبدا الفساد والفوضي ينتشران فى منطقة الكوفة نتيجة تعاليم الأهوازى ، حتي إن السلطات القت عليه القبض . وعندئذ فرّ من السجن بمساعدة أنصاره ، وترك لقرمط رئاسة حركته من بعده، حتي إنها نسبت إليه ، وعرف أتباعها باسم « القرامطة » .

منظمات القرامطة السرية :

وكشف حمدان قرمط عن مواهب خطيرة فى ميدان التسلل فاق فيها أستاذه الأهوازى . فآتخذ قرية بالقرب من الكوفة ، اسمها « مهما باز » ، وأمر أتباعه بالذهاب إليها ، واتخاذها وكرا يختبئون فيه من السلطات العربية في العراق . وجعل حمدان تلك القرية بمثابة «دارهجرة» لأنصاره وميدانا، يدربهم فيها على أساليب التسلل ضد الأمة العربية . ثم إنه أمر اتباعه بتحصين تلك الدار الجديدة ، وشيد لها سوراً هائلا ، وأقام لها الحراس دفعاً لأى هجوم من جانب السلطات العربية . وفى ذلك المكان السرى لقن حمدان أتباعه كراهية جيرانهم ، وبث فى نفوسهم الحقد على أهليهم وذويهم ممن يقيمون فى البلاد العربية . ثم إنه مَنَّى كل فرد بالوعود والأمانى الكاذبة ليجعله مسلوب الإرادة ، مستعدا لتقبل كل التعليمات التي تلقى إليه ، ولا سيما تلك التى تحضه على التخريب والتدمير .

وكان يتلو هذا الإعداد النفسى إعداد آخر حربي ، تمهيدا للتسلل الهدام . فكان ينتقى الأطفال الأشداء ، ثم يبعدهم عن أسرهم ، ويدربهم على شتى فنون القتال ، علي يد رؤساء

قساة غلاظ القلوب . وكان أفراد تلك العصابات يدربون على ركوب الخيل واستخدام القوس والنشاب وغيرها من وسائل القتال التى تصلح لحروب العصابات. وبالغ حمدان قرمط فى اختيار أفراد عصاباته ، حتى إن الواحد منهم كان يوسم على خده حتى يسهل تمييزه ، واستدعاؤه فى سرعة . وصار للقرامطة بذلك منظمات خطيرة بالعراق ، وغدت على وشك الانطلاق ضد البلاد العربية .

تسلل القرامطة إلى الشرق العربى

انتشار القرامطة فى بلاد العرب :

بعد وفاة حمدان قرمط،ذهب فرع من عصاباته إلى البحرين على الساحل الشرقى لبلاد العرب ، واستولى على مدينة هَجَر وجعلها مركزاً لتسلله فى تلك البلاد بعيدا عن العراق ، بعد أن بدأت السلطات العربية هناك تطارد جماعة القرامطة ، وتستأصل شأفتهم . واستطاع القرامطة تثبيت أقدامهم فى تلك الجهات من بلاد العرب ، ونشروا الفوضى فيها وفى سائر أرجائها . وتمادى قادة القرامطة فى ضلالهم حين وجهوا نشاطهم الهدام

إلى مهاجمة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة . وركز القرامطة هجومهم على قوافل الحجاج الذاهبة إلى مكة ، وأنزلوا بالحجاج الآمنين شتى ألوان القتل والنهب والسلب المخيف .

وكان أخطر نشاط لعصابات القرامطة هو تسللهم إلي مكة يوم التروية ، وهو اليوم الثامن من ذى الحجة ، حيث يستعد فيه الحجاج للخروج فى اليوم التالى لوقفة عرفات . ولذا لم يكن أحد يتوقع غير الهدوء والسكينة فى هذا اليوم الجليل . ولكن عصابات القرامطة جريا على سياسة التسلل الدنيء ، اختارت ذلك اليوم لهجومها العدوانى ، وإفساد جلال موسم الحج . وزحف أفرادها على منازل الحجاج ، وقتلوا الكثير من أهلها ، وسقط امير المدينة قتيلا كذلك وهو يدافع عن مدينته . وجلس زعيم القرامطة على باب الكعبة ، يعلن عن حقده الأسود قائلا : إنه قادر على إهلاك من يقف فى سبيله .

غير أن المقادير وقفت بالمرصاد لزعيم القرامطة الذى قاد هذا الهجوم الغادر على الأماكن المقدسة ، فلم يكد يستقر فى هجر حتى نزل به مرض عضال ، وطال عذابه ، وتقطعت أوصاله وأطرافه ، وهو ينظر إليها ، وتناثر الدود من لحمه ، ذلك أن

بطش ربك شديد ، وانتهت حياته بالموت فى العام نفسه الذى انتهك فيه حرمة الأماكن المقدسة .

محاولة التسلل إلى الشام :

وبسط القرامطة نشاطهم كذلك إلى بلاد الشام ، وتولى عصاباتهم إذ ذاك رجل خطر اسمه : ابن زكرويه. وكان أهل الشام يشتغلون بالتجارة ، ويقيم بعض آخر منهم آمنا فى قُراه، ويعمل على كسب قوته بجده وكفاحه . وأمام هذه الحياة العربية السليمة فشل تسلل القرامطة فى بلاد الشام ، وعجزت فلولهم عن اكتساب انصار لهم هناك . وأظهرت السلطات العربية فى الوقت نفسه يقظة بالغة فى سد كل السبل التى يمكن للقرامطة التسلل منها. وأظهر الجند العرب روحا عالية فى محاربة جماعات القرامطة التي استطاعت التسلل إلى داخل البلاد . ومن ذلك ان قائد عصابات القرامطة دأب علي التخفي أثناء الهجوم ، حتى لا يصاب بأذى ، وليمكنه الإشراف على مجريات المعركة . فكان يرتدى ملابس فضفاضة ، ويخفى رأسه بعمامة كبيرة ، ويركب على جمل خلف حارس له ، حتى لا يتبادر إلى أذهان الناس أن الرئيس هو الراكب إلى الخلف . غير أن جنديا من الجيش العربى ظل

يتحرى ، حتى عرف أسلوب قائد القرامطة فى التخفى ، واقتحم الصفوف فى المعركة ، وأرداه قتيلا . وبذلك عاد القرامطة إلى البحرين ، على الشاطىء الشرقى لبلاد العرب ، حيث جعلوا مقرهم الدائم هناك ، وبدأوا يدرسون خططاً جديدة تساعدهم على استئناف التسلل ضد الأمة العربية .

جهاد مصر فى حماية الشرق العربى :

وفى الوقت الذى اخذ فيه القرامطة يعدلون من خططهم ، قامت فى مصر الدولة الفاطمية ، التى ينتسب خلفاؤها إلى فاطمة الزهراء ، ابنة على بن ابى طالب . وجاء قيام هذه الدولة سدا منيعاً وقف فى سبيل تسلل القرامطة إلى الشرق العربى ، وقوة هتكت سمومهم ودسائسهم . ذلك أن الفاطميين باعتبارهم من الشيعة أعلنوا فى صراحة وجرأة أن القرامطة لا يمتون صلة لبيت على بن ابى طالب وشيعته . وبذلك فقد انصار هذه الحركة التسللية اهم ركن استندوا إليه فى إغراء الناس ، وانكشف خداعهم للجميع .

وكان من حسن طالع الأمة العربيـة أن تتولى مصر لواء الجهاد فى هذه المرحلة من تسلل القرامطة إلى الشرق العربى .

ذلك أن الخلافة العباسية فى بغداد عانت من الضعف الداخلى الشديد ما اغرى عصابات القرامطة بها وبسلطانها ، وصار يخيل إلي رؤساء تلك العصابات أن القوميةالعربية على وشك التصدع . واشتدت جرأة القرامطة فى تلك الفترة من ضعف العباسيين ، وقبيل قيام الفاطميين فى مصر ، حتي إنهم فرضوا إتاوات على سائر البلاد الممتدة من الخليج العربى إلى أطراف الشام .

ولذا استولى الفزع على زعيم القرامطة فى البحرين من الفاطميين ، وعول على إعداد عصاباته وتسليحها تسليحاً كاملا ليلقى بها في معركةحياة أو موت مع القوات العربية فى مصر . وفى الوقت نفسه بعث بجواسيسه إلي الديار المصرية لمعرفة مدى قوة الجيوش العربية بها . ولكن السلطات العربية فى القاهرة قد اتخذت لهذا التسلل أهبتها واحسن استعدادتها ، لأنها أدركت شدة خطورة القرامطة ، واغراضهم السيئة بالقومية العربية . فألقت الشرطة في مصر القبض على جواسيس القرامطة ، وأعدمتهم ، حتي إذا ما جاء زعيم القرامطة بعصاباته إلى مصر وجد السبل جميعاً مغلقةفى وجهه . واضطر أن يعود إلي وكره ، متوعدا مصر فى قوله :

يا مصر إن لم أسق ارضك من دم
يروى ثراك فلا سقانى النيل

وباءت بالخسران كل حركات القرامطة بعد عودتهم الفاشلة، ولم تستطع عصاباتهم التسلل إلى الشرق العربى لأن القوات العربية المصرية وقفت لهم بالمرصاد ، وجعلت مركز تسللهم عاطلا مشلولا . وتلا ذلك انتشار الفوضى فى صفوف القرامطة ، ودب اليأس إلى نفوسهم ، واندثرت قوتهم وتلاشت حركتهم ، ودخلت أعمالهم فى زوايا النسيان ، بعد أن تركت وراءها قصة مجيدة سطرها أبناء الأمة العربية فى سبيل الدفاع عن قوميتهم ، وحماية صرحها الشامخ .





حركات التسلل الاجتماعى

جماعات الزنادقة

ظهور الزندقة :

أدرك أعداء القومية العربية أن السر الحقيق لفشل جميع حركاتهم السياسية والعقائدية هو سلامة بناء المجتمع العربى ، وأن أفراده وقفوا جميعا وراء السلطات الرسمية يشدون أزرها فى نضالها ضد دعاة التسلل ، ويسدون كل ثغرة يحاولون الاستفادة منها . فقد اتسم هذا المجتمع بتقاليد رفيعة متينة ، ثمرة جهاد الآباء والأجداد ، وصارت الحارس الأمين على القومية العربية ، والحصن الذي يصد عنها سهام الحاقدين المتسللين . واستطاع أبنـاء الأمة العربية بذلك أن يتجاوبوا حضاريا مع جيرانهم ، وان ياخذوا منهم ما يفيدهم دون أن يقعوا في أى متاعب ، أو يتعرضوا لأى انحراف .

وامتلأ قلب أعداء الأمة العربية حقدا على هذا المجتمع السامى ، وأخذوا يوجهون حركاتهم التسللية نحوه ، محاولين إضعافه ، أملاً فى سلب القومية العربية سلاحها المعنوى والمادى البتّار . وكان نطاق حركة التسلل الاجتماعى واسعاً ، إذ أعد قادتها خططهم على ألا تقتصر علي طائفة معينة من الناس ، وإنما تشمل سائر طبقات المجتمع ، على اختلاف مراتبها ، من أبناء الأمراء والوزراء العرب ومن فى درجتهم من العلماء والأدباء والشعراء وسائر أهل الثقافة والفكر ، إلى أبسط الطبقات وأكثرها تواضعا ، من عامة الناس ، ومن لَفّ لفهم .. فأعد أنصار هذه الحركة لكل طبقة من طبقات المجتمع ما يناسبها من الخدع والأباطيل الاجتماعية ، وما يودى بقوتها وهيبتها .

وكانت الأسلحة التى لجأ إليها دعاة التسلل الاجتماعى، هو نشر سموم الشك فى النفوس ، وذلك بإثارة الريبة نحو التقاليد التي عاش الناس فيها زمناً طويلا ، لأن ذلك يضعف إيمانهم بالسنن المألوفة ، ويجعلهم بالتالى عرضة لتقبل ما يلقى إليهم من أباطيل . فأشاعوا بين الناس الخلاعة والمجون ، وأغروهم على التأنق الزائف فى ملبسهم ومأكلهم ، حتي يصبح الفرد ضيق الأفق ، لا يتمسك إلا بصغائر الأمور ، وتبتعد نفسه عن الطموح وحب المجد

والعمل ، وينتهى به الأمر إلي ان يصبح عبداً لغرائزه ، وأسير اندفاعاتها . وتعرف هذه الأسلحة الاجتماعية الفاسدة كلها وعلى اختلاف ، الوانها ، باسم « الزندقة » لأنها جميعاً تعتمد على الشك والريبة ، وهما الد أعداء الحياة الاجتماعية .

تسلل الزنادقة إلى المجتمع العربي :

وجد دعاة التسلل الاجتماعي فى إحدى ديانات فارس القديمة ضالتهم المنشودة فى حرب الأمة العربية . وتعرف تلك الديانة باسم : « المانوية » نسبة إلى زعيمها مانى الذى ظهر فى فارس سنة ٢١٥ م . وكانت تعاليم هذا الفارسي الخبيث تدفع الناس إلى الزهد ، بدعوى أن الحياة وهم زائل ، ولكن فى الحقيقة استهدف بالدعوى إلي هذا اللون الشاذ من الحياة صرف الناس عن العمل المنتج ، كما حثهم على عدم الزواج حتى يستعجلوا الفناء ، كما نهى عن ذبح الحيوان بحجة أن فى ذلك إيلاما له ، وإنما استهدف بذلك إفساد الحياة الاقتصادية التى هى عماد المجتمع .

وتسلل أنصار هــذه الحركة اولا بين الأتقياء والزهاد المخلصين حتى يكسبوا عطف الناس ويضمنوا إخفاء مفاسدهم . ثم بدأوا بعد ذلك استخدام سلاح الشك ، الذى هو رائد

الزنادقة ، وعمدوا إلى دفع الناس بذلك إلى طرق الحيرة والضلال . ومن أساليب أولئك الزنادقة : « انهم كانوا يظهرون للناس كراهية صيد الحيوان» ويرون أن فى ذلك قسوة بالغة ، وأن الصيد يؤدى بالناس إلى التهاون بالدماء ويشجعهم على سفكها » وعلي هذا النحو من المغالطة ، والمنطق الفاسد الملئ بالمقدمات الخاطئة انتشر الزنادقة بين سائر طبقات المجتمع ، إذ اعتبر الزنادقة إباحة ما حلله الله من أكل لحم الطير ، معادلا لإراقة الدماء ، وذلك إمعانا منهم فى تشويه الحقائق .

واعتمد دعاة هذه الحركة التسللية الفاسدة علي سلاح خطر لتنفيذ مآربهم ، إذ تبنوا طبقة من العلماء الفرس ، الذين لم يحترموا الأمانة العلمية ، وطلبوا منهم خلق موجة من الثقافة الجدلية ، تسهل على الزنادقة التسلل إلي الأوساط العلمية والتربوية العربية . وأعدوا فى الوقت نفسه طبقة من مواطنيهم الحاقدين على العرب ، وزوّدوهم بالمعلومات العامة من شتى المعارف والفنون دون ان يتعمقوا فيها ، حيث أدت بهم هذه التربية الناقصة إلى الغرور ، والقدرة على الجدل و المراوغة و الانتقال من موضوع إلي موضوع مبالغة فى خداع الناس وإيهامهم بأنهم على علم غزير . ثم دفع دعاة التسلل هذه الفئة الخبيثة لتندس بين ندوات المجتمع العربي ،

واستغلال الجدل الذي يثيره العلماء الفرس الموالون للتسلل ضد الأمة العربية . وكانت خطة التسلل الاجتماعي تسير اولا سيراً يبدو منه أنهم دعاة آراء حرةً ، مستغلين حب العرب لحرية الراى ، وإفساح صدرهم لكل فكرة تلقى في مجالسهم . فبدأ الزنادقة بذكر الأقوال المأثورة للفرس من نوادرهم وآدابهم . وأكثر الزنادقة من ترديد أمثال بزرجمهر الفارسى ، وعهود أردشير . وبعد أن يطمئنوا إلى اجتذابهم لأنظار المستمعين فى المجالس تبدأ خطتهم المرسومة بالتسلل لإفساد التقاليد العربية والعمل على النيل منها . فكان الزنديق يحاول القيام بحركات مستهجنة حين يُذْكَر فى تلك المجالس اسم شخص من كبار رجالات العرب ، أو علمائهم الأجلاء .

ووصف أحد المؤرخين طرق تسلل الزنادقة فى المجتمعات العربية قائلا : « فكان الزنديق إذا سمع اسم أحد من اصحاب رسول الله ، فتل عند ذلك شدقه ، ولوى عن محاسنهم كشحه ، وإن ذكر شرَيح ، وهو أحد الثقاة فى تاريخ العرب عمد الزنديق إلي تجريحه ، وإن وصف له الشّعْبي ، وهو من كبار علماء العراق ، استثقله . ويحاول الزنديق قطع مجرى الحديث عن تلك الشخصيات العربية بترديد سيرة ملوك الفرس ،

وعرضها في صورة تجذب انتباه السامعين ، وتنسيهم امجاد العرب . وعندما يحس الزنديق بأن الحاضرين ضجروا من قوله ، أو اشمأزوا من إقحام سيرة غير العرب ، يلجأ إلى التمويه والأساليب الملتوية انتظارا لفرصة أخرى يستطيع التسلل منها مرة اخرى .

وعمد الزنادقة فى مجالسهم إلى استخدام كل الوسائل التى تكفل لهم التسلل الهدام . فلم يتورعوا عن نسبة الشيء إلى غير قائله ، والإكثار من ذكر الهجاء والنابي من القول عند الحديث عن الشخصيات العربية . وتجلى ذلك فى مجالس الخليفة العباسي هارون الرشيد ، والذي علا فى عهده شأن أسرة البرامكة الفرس ، إذ اشتهر فى تلك المجالس الأصمعى العالم العربى ، وأبو عبيدة الفارسى ، اما الأول فكان يبتعد عن ذكر اشعار الهجاء سموا بالمجتمع العربى عما يمتلىء به هذا الشعر من نابى الألفاظ « كأنه يرى ان ذلك يمس دينه ، وكأنه يرى ان فى الهجاء حطاً من شان المهجو ، وبالتالى فى ذلك مساس بالعربية » . أما أبوعبيدة فعمد إلى استغواء الناس بسعة اطلاعه ، وقلب الحقائق أو تشويهها اعتمادا على قلة خبرة المستمعين . وبلغت الجرأة بالعلماء المتسللين درجة جعلتهم يزيفون الأحداث

التاريخية التى تتصل بأمجاد العرب . ومن ذلك أنهم وضعوا الكتب المليئة بالمغالطات عن خصال العرب مثل الكرم والشهامة والمروءة ، فاعتبروا الكرم تبذيرا والشهامة تهورا ، والمروءة ضعفا وهكذا .

وتستر الوزراء الفرس فى عهد الدولة العباسية على هذه الحركة التسللية ، وشجعوها فى الخفاء . فاحتضن البرامكة مثلا على عهد الرشيد أحد قادة التسلل ، واسمه علان الفارسى ، إذ شجعوه على تأليف كتاب يتناول سيرة العرب في الجاهلية ، مُظهرا الخلافات التي دارت بينهم ، بما يثير الأحقاد ويجددها بين طبقات المجتمع العربي . ثم بدا الزنادقة يروجون لتلك الكتب المزيفة فى المجالس الأدبية والعلمية التى امتلأت بها أيام العباسيين ، ويحاولون بذلك صرف العرب عن الاعتزاز بماضيهم والتغنى بمآثره .

وصاحب هذا التسلل الذى قام به العلماء الفرس تسلل آخر خطير استهدف النيل من قوة الخلق العربى . فالمعروف أن الأخلاق المتينة هى السياج الذى يحمى المجتمع من الانهيار ، ويجعل أصحابها دائما مرفوعى الرأس ، وموضع الهيبة والاحترام عند جيرانهم . واشتهر العرب بتمسكهم بالفضائل والخصال

الحميدة والابتعاد عن الهزل المليء بالإسفاف . وسادت هذه المظاهر كل طبقات المجتمع العربي من أعلاها إلى أدناها دون أية تفرقة . ويؤثر عن الخلفاء العباسيين مراقبة كل مظهر للتسلل الخلقي ومنعه من الانتشار فى مجالسهم ، ومحاسبة كل من يبدى أى لون من الوان الإسفاف فى حضرتهم حسابا عسيرا .

ولذا تسلل دعاة هدم التقاليد العربية عن طريق الوزراء الفرس ، الذين جعلوا من بيوتهم ملجأ للخلاعة والمجون وشرب الخمر . وكان البرامكة أيضاً مثالا لهذا التستر الذميم لدعاة الفساد ، كما تستروا من قبل على تسلل العلماء الفرس . وقد اكتشف أحد كبار رجال العرب بمحض الصدفة ما كان يدور في منازلهم من لهو وعبث . ذلك أن جعفر بن يحى البرمكى خصص يوما للشراب ، وأحضر الخمر وندماءه الذين يرتاح إليهم ، وأعد لهم خلوة تامة فى منزله بعيدة عن أعين الرقباء ، وأمر حراس قصره بألا يأذنوا لأحد من خلق الله بالدخول إلا لأحد الندماء ، واسمه عبد الملك بن صالح ، كان قد تأخر فى الحضور . وجلس الجميع يلهون ويسكرون ، وقد لبسوا الثياب الحمر والصفر الخضر ، إمعانا فى الخلاعة والمجون .

وكان للخليفة هارون الرشيد قريب ، اسمه عبد الملك بن صالح

العباسى ، وذهب إلى قصر جعفر البرمكى في ذلك اليوم لقضاء بعض مصالحه . وكان هذا العربى الأصيل وقورا جليلا ، شديد الحشمة . وعندما وصل إلي دار البرمكى ظنه الحراس نديم جعفر البرمكى الذى تأخر في الحضور ، وسمحوا له بالدخول . فلما رآه جعفر البرمكى كاد عقله يذهب من الحياء ، وادرك أن الأمر قد اشتبه على الحراس ، وأتاحوا بذلك لهذا الفساد أن يُعرف . وبذلك كشفت الصدفة المحضة عما دار فى منازل البرامكة من ، مساخر وتسلل ضد القيم الاجتماعية .

وزاد فى تسلل الزنادقة خطورة أنهم شجعوا لعب الميسر بانواعه ، ومنها المسابقات بين أنواع مخصوصة من الديكة ، يتراهن الناس على أيها يفوز فى النضال . وكذلك انتشرت ألوان أخرى من المقامرة منها سباق الكلاب . وامتدت عدوى القمار إلى شتى الطبقات وصار الأمر خطيراً ، وأصبحت الحياة مهددة من كل ناحية بمفاسد الزنادقة ومساوئهم .

وفي وسط هذا التيار الماجن أخذت الزندقة تفصح عما فى نفسها من كراهية للأمة العربية ، وتراثها وتقاليدها ، ذلك أن إدمان شرب الخمر أفقد الزنادقة السيطرة على عقلهم الواعى ، وجعل عقلهم الباطن يكشف عن كراهيتهم لماضى

العرب ، علي نحو ما عبر عنه أبو نواس الشاعر الفارسى ، وشيخ الزنادقة الماجنين فى قوله :

يبكى على طلل الماضين من أسد
لا درّ درك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفها
ليس الأعاريب عند الله من أحد
دع هذا عدمتك واشربها معتقة
صفراء تفرق بين الروح والجسد

وتبع أبا نواس شعراء عديدون من الفرس الزنادقة ، منهم بشار بن برد ، حاول كل منهم أن ينال من الأمة العربية حسب استعداداته وقدراته ، وتولى بشار إشاعة الفحش بين الناس ، والإساءة إلي الأسر العربية العريقة . وهكذا صار الأمر خطيراً بسبب نشاط الزنادقة ؛ وتطلب الموقف حزما من السلطات العربية وعلماء العرب كذلك ، لصد هذا التسلل المخيف ، الذى هدد المجتمع العربي أشد تهديد .

مطاردة الزنادقة

صاحب الزنادقة :

وضعت السلطات العربية خطة سريعة وحاسمة للكشف عن الزنادقة وهدم تسللهم . وكان لتلك الخطة شعبتان ، سارتا جنبا إلى جنب ، الأولى هى استخدام القسوة المتناهية فى ضرب قادة الزنادقة ، والثانية هى تكوين هيئة علمية لتفنيد مزاعمهم ، والرد على أقوالهم الفاسدة ، حتى يعود عامة الناس إلى رشدهم ، ويتخلصوا من الضلال ، الذى تردوا فيه .

ووضع الخليفة العباسى ، وهو أبو جعفر المنصور الذى قضى على التسلل السياسى ، خطة محاربة الزنادقة ، ورسم لخلفائه من بعده سبل القضاء التام على هذه العصابات الخطرة . فأنشأ ديوانا جديداً مهمته التحرى عن الزنادقة ، واقتفاء أثرهم بين مختلف الطبقات الاجتماعية ، ودراسة مدى استجابة الناس لآرائهم وأباطيلهم . واختار لهذا الديوان نفرا من أبناء الأمة العربية المعروف عنهم الحزم واليقظة العالية ، وكلفهم استئصال الجرائم الاجتماعية الخطرة . ولذلك أطلق على كل من يتولى شئون

هذا الديوان اسم «صاحب الزنادقة» ، دلالة على تفرغه الكامل لمطاردة هذه العصابات الاجتماعية الشريرة . ذلك أن السلطات العربية لم تشأ أن تعهد بمطاردة الزنادقة لرجال الشرطة أو غيرهم من رجال الأمن ، وإنما افردت لتلك المهمة شخصاً من خيرة رجالات العرب دلالة على الأخطار التي تهددت العرب وقوميتهم على أيدى تلك العصابات الفاسدة .

ودلت تحريات ديوان الزنادقة على أن بيوت الوزراء الفرس، صارت مراكز للتسلل الاجتماعى ضد الأمة العربية ، وأن أبناء اولئك الوزراء يسترون زندقتهم بادعائهم حفظ القرآن الكريم. واستدعى صاحب الزنادقة هذا النفر من الفاسدين ، وأجرى معهم تحقيقات ثبت فيها شرهم وخطرهم ، ولقوا جزاء صارما . ذلك أن تهمة الزندقة كان عقابها الإعدام إذا ثبتت ، ولم يخفف الحكام العرب تلك العقوبة عن أى شخص أدين بها مهما كان مركزه أو أحواله . وتابع ديوان الزنادقة تحرياته كذلك بين البيوت العربية المتصلة بالفرس ، ومراقبة سيرة أبنائها ، والحيلولة دون امتداد جرثومة الزندقة إليهم . وجاءت التحريات بأن أحد أبناء تلك البيوت العربية ، وهو آدم حفيد عمر ابن العزيز موضع الشبهة فى سيرته ، ويخشى أن يكون مشايعاً لتعاليم

الزنادقة . إذ دأب على شرب الخمر ، وتفوه بألفاظ غير كريمة ، وأمر الخليفة المهدى بإحضار هذا الشاب العربى ، واجرى معه تحقيقا بنفسه بعد أن أمر بضربه ضربا مبرحا .

ولكن هذا الشاب العربى نفى عن نفسه فى شدة وإيمان بالنفس تهمة الزندقة عنه ، وقال إن ما جاء به نتيجة وقوعه فى خطأ السكر ، ثم ذكر للخليفة فى اعتزاز بعروبته : ومتى رأيت يا أمير المؤمنين عربياً تزندق . ومع ذلك لم يأمر الخليفة بإطلاق سراح هذا الشاب العربي إلا بعد أن أخذت عليه التعهدات الكافية بالا يضع نفسه مرة اخرى موضع الشبهة . وصار هذا المثل كذلك درساً قاسياً لكل من تحدثه نفسه بالانزلاق فى تيار الزنادقة أو يأتى من الأفعال ما يجعله زنديقا .

وصارت سياسة مطاردة الزنادقة خطة مرسومة يوصى بها الخلفاء أبناءهم ، باعتبارها ركنا أساسياً من أركان الحكم ، مما يدل على خطر هذه الحركة التسللية . وعبر الخليفة المهدى عن تلك السياسة العربية لابنه وولى عهده الهادى ، وكان جالسا معه فى محاكمة أحد الزنادقة ، إذ أبى الخليفة تخفيف الحكم بالإعدام الذى صدر على هذا الزنديق ، ثم اتجه إلى ولي عهده ، وقال له : « يا بنى إن صار لك هذا

الأمر (اى الخلافة) ، فتجرد لهذه العصابة « وهم الزنادقة » ، فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، مثل الزهد فى الدنيا وتحريم اللحم ، ثم تخرج بعد ذلك إلى نشر سمومها لمن يقع فى حبائلها ، وتدفعهم إلى الظلمات . فارفع فيها الخشب (أى المشانق) وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله » .

وكان الهادى عند حسن ظن أبيه ، حيث طارد الزنادقة مطاردة شديدة ، وكذلك فعل خليفته هارون الرشيد حتى استطاعت السلطات العربية أن تضع يدها على قادة التسلل الاجتماعى ، وضبطت عندهم الكثير من الكتب التي تشرح آراء الزنادقة ، وترسم أساليب التسلل بين الناس : وبدا تيار التسلل الاجتماعي ينحسر أمام سلطان « صاحب الزنادقة » ، ونشاطه في القضاء علي هذه العصابات الخطرة ، ونجت القومية العربية من جرثومة فاسدة كادت تمتد إلى ابنائها ، والقومة على سلامتها .

نشر الوعى الثقافى :

وإلى جانب « صاحب الزنادقة » اتخذت السلطات العربية وسائل علمية للقضاء على الآثار السيئة التى تركتها حركة الزنادقة فى المجتمع ، لأن انتزاع العقائد الفاسدة لا يكون إلا عن طريق نشر الوعى الثقافى ، ليدرك الجميع عن اقتناع ضرر السموم التى

نشرها أعداؤهم . ذلك أن نفراً من الزنادقة وضع كتبا فى العلم والسياسة والأدب ، أخفوا بين سطورها تعاليمهم ، وتأثر بها نفر من الشباب العرب ، وأصبحت الضرورة تقضى تفنيد ماجاء بتلك الكتب من أكاذيب ، وتطهير العقول من آثارها .

وألفت السلطات العربية هيئة علمية ، ضمت العلماء والفقهاء وغيرهم من كبار رجال الدولة من ذوى الثقافة الواسعة ، لمناقشة من يقع فى أيديهم من المتهمين بالزندقة وتفنيد كلامه وحججه الرائفة . وكانت هذه المناقشات العلمية أشبه بالمحاكمات العلنية حتى يتبين الناس جهارا النوايا السيئة التي يستهدف الزنادقة إلحاقها بقوميتهم . وكان لتلك الهيئة العلمية الفضل الكبير فى اكتشاف كبار الزنادقة ، ولا سيما العلماء منهم ، وهتك الأستار العلمية التى اختفوا وراءها . واشتهر من هيئة العلماء المكلفة بالتحرى عن الزنادقة والرد على أقوالهم « واصل بن عطاء » إذ دأب على دراسة كتب الزنادقة ، وتفنيد أباطيلها ثم الرد عليهم ، ووضع الكتب التى تهدى الناس إلى الخير والرشاد . وذكرت امرأته شدة جهاده فى ذلك السبيل قائلة : « كان إذا جنه الليل ، يصف قدميه ويصلى ، ولوح ودواة موضوعان أمامه ، فإذا مرت فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ، ثم عاد إلى صلاته » . وروى

أحد العلماء أنه قرا الجزء الأول من كتاب واصل في الرد علي الزنادقة ، ووجد أنه حافل بالحجج الدامغة التي جاءت ثمرة الدراسة الواسعة الدقيقة .

وفي الوقت نفسه وضع واصل طريقة أخرى كان لها أثرها فى سد السبل أمام تسلل الزنادقة ، إذ لم يكتف بالتأليف فى سبيل الردعلي الزنادقة،وإنما أرسل الكثير من تلاميذه إلى جميع الجهات لتفنيد أقوال الزنادقة ولا سيما فى مراكز تسللهم نفسها فى فارس . ولم يتردد هو نفسه عن السفر إلى المناطق النائية ، ضاربا المثل الأعلي علي خدمة العلم والعلماء فى سبيل حماية الأمة العربية ، والدفاع عنها ضد أعدائها . وصارت مجهودات واصل بن عطاء المدرسة التى تخرج منها كثير من العلماء الذين حملوا راية الكفاح من أجل إعزاز العروبة، وسد كل السبل أمام أعدائها الهدامين .

وبلغت هيئة العلماء العرب أعلى درجاتها وتنظيمها فى عهد الخليفة المأمون العباسى ، ذلك ان الزنادقة انتهزوا الفوضى التى سبقت عهده بسبب النزاع بينه وبين أخيه الأمين ، ونشطوا في نشر سمومهم ضد القومية العربية . ولذا أمر غداة استقرار الأمور له فى بغداد بجمع العلماء وتنظيم نشاطهم لحماية المجتمع

العربى . وجعل رئاسة تلك الهيئة إلى أحد العلماء وهو يحيي ابن أكثم ، الذى شرح سياسة الخليفة قائلا :

«أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه العلماء والفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم ، وجلس لهم المامون يسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم . فلما انفض ذلك المجلس قال المأمون : إنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا — بتوفيق الله وتأييده على إتمامه — سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرجى وأصلح للدين ، إما شاك فينقاد بعد أن يتيقن ، أو معاند فيرد بالعدل كرها» . وترتب على جمع العلماء فى صعيد واحد سد كل السبل أمام تسلل الزنادقة ، وفى الوقت نفسه تزويد شباب العرب بالآراء السليمة التى تكسبهم منعة وعزة ، وتساعدهم على متابعة جهادهم فى الدفاع عن أمتهم وبلادها .

واشتهر فى جهاد أولئك العلماء «ابو الهذيل العلاف» ، الذى تمكن من إفحام أحد كبار الزنادقة واسمه صالح بن عبد القدوس، في إحدى مناقشاته معه . ذلك أن صالح توفى له ولد ، ورآه ابو الهذيل حزينا ، فسأله ولماذا تحزن ؟ . فانتهز الزنديق هذه الفرصة ليُعَبِّرَ عن آرائه الفاسدة ، إذ أجاب : إنى لست

حزينا على وفاة ابنى ، وإنما انا حزين لأنه مات قبل أن يقرأ كتاب الشكوك . فقال أبو الهذيل ، وما كتاب الشكوك ؟ . قال الزنديق : كتاب وضعته ، من قرأ فيه شك فيما يتوهم حتى يظن أنه لم يكن ، وفيما لم يكن ، حتى يظن أنه كان . قال أبو الهذيل . فشك أنت فى موت ابنك ، وافرض أنه لم يمت ، وإن كان قد مات ، وشك أيضاً فى أنه قرأ ذلك الكتاب وإن كان لم يقرأ .

وهكذا انتزع العلماء العرب الأسلحة من أيدى دعاة التسلل الاجتماعى ، وتركوهم وحدهم في الميدان يلقون مصرعهم ، بعد أن نفر منهم أبناء الأمة العربية ، وحفظوا للقومية العربية هيبتها وسلامتها على أساس راسخ ، هو أساس العلم المتين ، الذى لايستطيع الباطل أن يأتيه من بين يديه أو من خلفه .





الصهيونية

جماعة الفريسيين أو مهد الصهيونية :

عرفت حركات التسلل ضد القومية العربية على اختلاف ألوانها إلي العودة إلي الماضى البائد تلتمس بين أطلاله الخربة ، ونبوءاته المدثرة ما يساعدها علي كسب الأنصار حولها ، ثم استغلالهم لتحقيق الأطماع التى تجيش بها نفوس قادتها الفاسدين . وسارت على هذا النهج « الصهيونية » ، التى تعتبر أخطر حركات التسلل التى تواجهها القومية العربية فى الوقت الحاضر . وترجع أصول هذه الحركة إلى « جماعة الفريسيين» ، أى « المنافقين » ، وهو الاسم الذى أطلقته عليهم كتب التاريخ ، على اختلاف الأزمان والعصور . وتكونت هذه الجماعة السرية من بعض علماء اليهود ، عقب تشتيت اليهود

انفسهم فى سائر أرجاء الأرض ، بسبب غضب الله عليهم ، لخروجهم على تعاليمه الصحيحة ، التي جاءهم بها نبيه موسى الكليم . إذ بدأت « جماعة المنافقين » تعمل منذ ذلك الوقت المبكر من فجر التاريخ علي تضليل اليهود ، واستغلال العامة منهم بنشر الأماني والوعود الكاذبة بينهم ، والتى تكفل لهم السيطرة على سائر أرجاء العالم ، الذى تشتتوا فيه .

وتسللت « جماعة الفريسيين » عن طريق تحريف التوراة ، كتاب الله ، وتفسيره تفسيرا يتفق ومبادئهم الهدامة . والوسيلة التى اتبعوها للوصول إلي تلك النتيجة هى الوسيلة نفسها التى لجأ إليها دعاة الباطنية ، حين أسسوا حركات التسلل التى قام بها جماعة الحشاشين والقرامطة . فادعى الفريسيون أن الكتاب المقدس لا يعنى معناه الحرفى ، وإنما يكمن وراء المعانى الظاهرة : دلالات باطنية لا يستطيع الجهال معرفتها إلا عن طريقتهم . واستطاعوا بذلك جمع السلطة فى ايديهم ، بالسيطرة على مقاليد الأمور في مجلس الحكم اليهودى ، المعروف باسم « السانهدرين » ، والذى صار منظمة سرية كبرى ، يتلق منه سائر اليهود فى كل مكان التوجيه ، وينفذون تعاليمه .

واستهل المنافقون أعمالهم الخطرة : بتملق جماهير اليهود وذلك

بتلقينهم أسس الغرور العنصرى . فحرفوا تعاليم التوراة بحيث جعلت اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، وما عداهم من سائر البشر «جُويم» ، أى غير يهود ، وأنجاس تقف مع الحيوانات فى مرتبة واحدة . وجاء هذا الغرور العنصرى ردّ فعل لتشريد اليهود ، وحقدهم على سائر الأمم المجاورة لهم ، والتى كانت تنعم بالوحدة والاستقرار . وأعقب قادة هذه الجمعية السرية أعمالهم العنصرية بنظرية أخرى لتدعيمها ، وهى أن رئيسا من اليهود سوف يظهر وينتقم من جميع الشعوب ويخضعها لهم .

وتصدى لدحض هذه الأكاذيب الخطرة كل من المسيحية والإسلام فكشف المسيح ، عليه السلام ، الحجاب عن مراء ليهود وأباطيلهم ، ودفع هو وأتباعه ثمنا باهظا فى سبيل تحذير البشرية من سموم أولئك اليهود .

وأظهر القرآن الكريم نفاق اليهود كذلك ، وشهّر بأولئك الذين (يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هـذا من عند الله) ، وجاهدهم فى كل مكان ، ولذا وجد اليهود فى كل عصر يقظة تامة لدسائسهم ، ولم يستطع قادة مؤامراتهم أن يحققوا لهم السيادة التى خدعوهم بها ،

ولم تنجح أعمال العنف التى جنحوا إليها فى سبيل تنفيذ ما ربهم العنصرية .

ولما تبين لهذا النفر من المنافقين اليهود أن الاستيلاء على العالم ليس بالسهولة التى تخيلوها ، اتجهوا إلى تكوين الجمعيات السرية ، شأنهم فى ذلك شأن القرامط وجماعة الحشاشين من قبل ، وجعلوا أهدافها إشاعة الفساد والانحلال فى نفوس الأفراد والجماعات ، حتى إذا عمّ الفساد جميع الشعوب فاصبح العالم طوع بنانهم ويسهل عليهم بالتالي التسلل إلى شتى ارجائه كما يحلو لهم ، والسيطرة عليه آخر الأمر .

ومن أجل ربط هذه الجمعيات السرية اليهودية بعضها ببعض ، ودوام نشاطها وضع الفريسيون النافقون لها تعاليم تناقلوها شفاها مخافة أن يطلع عليها غيرهم . ولما تعددت تلك الجمعيات وانتشرت فى سائر أرجاء العالم خاف قادة التسلل منهم أن تضيع تلك التعاليم ، وقام نفر منهم بتدوينها فى كتاب يسهل تداوله . ثم تناول النافقون اليهود إضافة الشروح والآراء التي تحقق أهداف حركتهم التسللية إلي هذا الكتاب السام ، وأكسبوه صفة التقديس ، حتى صار يتناوله الخلف عن السلف من اليهود ، إلي أن صار دستور حركة التسلل الاستعمارى ، التي تضطلع

بها الصهيونية في الوقت الحاضر ضد القومية العربية . ولذا يقتضى فهم حركة الصهيونية عرض أهم الآراء التي جاءت فى ذلك الكتاب، الذى أطلقوا عليه اسم « التلمود » أى « السنن الموروثة » التي وضعها أسلافهم الحاقدون على البشرية .

« التلمود » أو حقيقة الصهيونية :

تعبر الآراء التي جاءت فى التلمود تعبيرا صريحا عن الصهيونية ، وتوضح طبيعة التسلل الذى تقوم به تلك الحركة الخطيرة فى الوقت الحاضر ضد القومية العربية والعالم أجمع كذلك . وظهرت نسخة من التلمود سنة ١٥٢٠ في البندقية ، وتتكون من اثنى عشر مجلدا كبيرا . وأحدث توزيع هذا الكتاب سخطا فى شتي أرجاء العالم بسبب ما جاء فيه عن آراء اليهود فى سائر الشعوب الإنسانية . ولذا اجتمع أحبار اليهود ، وقرروا حذف الفقرات التي اغضبت سائر الناس من اليهود ، ولكن طلبوا فى الوقت نفسه من أتباعهم ان يترك كل فرد « مكان هذه الفقرات خاليا حتى يستطيع اليهود بعد ذلك أن يثبتوها فيه بخط ايديهم ، او أن يوضع فى مكان كل منها دائرة ، لتشير إلى الحذف ، مع التنبيه على الأحبار ومعلمى المدارس

أن يكتفوا بتلقينها للشباب وللتلاميذ شفهيا .... وبهذه الوسيلة نستطيع أن نصل إلى أهدافنا دون إثارة الأعداء علينا » .

وينص التلمود على غرور اليهود ، ويمهد لانتزاع الشفقة من نفوسهم ، وهو الأمر الذى يوصم به الصهاينة فى الوقت الحاضر . وقد ذكر التلمود في منطق خاطىء فاسد — يبدأ بمقدمات خاطئة تسلم بدورها إلى نتائج خاطئة — قوله : « لا مراء فى أن الأشياء تختلف بعضها عن بعض . فالنبات والحيوان لا يمكن لهما وجود دون عناية الإنسان . وكما أن بنى الإنسان يَسْمُون على الحيوانات ، فإن اليهود يسمون على شعوب الأرض جميعاً » . « إذ ان هؤلاء الشعوب من بذرة حيوانية » ، وعلى هذا الأساس الخطير الفاسد فى الوقت نفسه ، بدأ التلمود يرسم لأتباعه طرق التسلل على نحو ما تقوم به الصهيونية اليوم ، فقال : « يجب علي الإنسان (أى اليهودى) أن يتذرع دائما بالمكر فى تنفيذه لوصايا الله : فيلقى التحية على غير اليهود ، وفسر النافقون هذا القول بأن خداع غير اليهود واجب ، ولكى يؤدى ذلك دون أن يكتشف أمره فعليه أن يزور جيرانه ، ولكن ليس من أجل اكتساب ودهم ، وإنما للإيقاع بهم ، ومعرفة مواطن الضعف عندهم .

ورسم التلمود لليهود عددا من الوسائل الملتوية التي يحققون بها أغراضهم الكبرى ، وهى السيطرة على العالم . ومن تلك الوسائل استغلال الربا لتجريد العالم مما يملك. فقال التلمود : « أمرنا الله أن نستخدم الربا مع غير اليهود وأن نقرضهم المال بالفائدة لكى نصيبهم بالأذى بدلا من أن نقدم لهم المعونة ، حتى ولو كانوا يساعدوننا ويخلصون لنا » . واشتهر اليهود بالربا طول العصور التاريخية حتى إن ألمانيا ، قبل الحرب حرّمت على اليهود أن يقرضوا بأكثر من ٤٣ ٪ ، بعد أن كانوا يقرضون بسعر يزيد على ٦٠٠ ٪ . ثم إن التلمود نص على أن الربا عنصر أساسي من الحياة اليهودية ، والسبيل الأول لسيادة اليهود على العالم ، ولذا وضع قاعدة لتربية أبناء اليهود عليه ، إذ أوصى كل يهودي أن يقرض أولاده بالربا « حتى يستمرئوا طعمه ولا يستطيعوا التخلي عنه » .

وفي الوقت نفسه يعتبر التلمود كتاب الكذب والخداع واللصوصية والغدر والاحتيال ، وبالتالى عنوان الأخلاق الصهيونية ، ونبراسها فى الحياة العالمية . فلم يكتف التلمود بحث اليهود على استخدام الربا فحسب ، وإنما نص أيضا على غش الناس فى البيع والشراء . وضرب مثلا على ذلك بأحد كبار اليهود ،

إذ قابل شخصا غير يهودى ، ومعه قارورة من الذهب الإبريز ، فما زال به حتى أقنعه بأنها من النحاس الأصفر واشتراها منه بأربعة دراهم ثم لم يكتف بذلك ، وإنما سلبه درهما عند الدفع .

وذكر التلمود أن يكون شعار اليهود مع غيرهم من الناس هو الكذب ، وشرح أحبارهم ذلك الكذب بقولهم : « إذا أخطأ واحد من اليهود فى العدد واستفهم من اليهودى عما إذا كان العد مضبوطاً ، وجب على الأخير ألا يجيبه بلا أو بنعم ، بل يقول له اليهودى لا أدرى ، لأنه قد يكون أخطأ عامدا لكى يختبر أمانته ، » . ودعم قادة النفاق اليهودى خلق الخداع فى نفوس جماعته بأن نص على أن يجتمع اليهود يوم السبت من كل أسبوع ، « ليحتفلوا بحذقهم فى الخداع » .

وأباح التلمود لليهود عدم احترام العهود والمواثيق ، وقدم لهم النصائح التى تعفيهم ، وتحلهم من أى قسم يمكن أن يرتبطوا به ، فقال : يكفى على كل يهودى أن يضيف إلى أى قسم يتلوه أمام أية مجموعة من الناس أن يتمتم سرا فى نفسه كلاما يناقض تعهده . وقال فى ذلك احد شيوخ النفاق اليهودى ، يكفى اليهودي ، لكى يتحلل من قسمه دون حنث وهو يقسم أن يقول : « إن هذا القسم غير نافذ المفعول » . ثم إن اليهود لا يخجلون من هذا الخلق

الذميم وإنما يقيمون عيدا سنويا اسمه عيد الغفران ، أو « يوم قبور » ، ويقف فيه الحاخام الأكبر ويعلن دون حياء : « ولتعفنا يا الله من الوفاء بجميع العهود والمواثيق التي نقطعها على أنفسنا والأيمان التي نتفوه بها ابتداء من يومنا هذا حتى اليوم المماثل له من العام القادم ، واجعلها عديمة الفاعلية ، عديمة القيمة كأنها لم تكن » .

هذا ووضعت جماعة الفريسيين في كتابها التلمود أسس معاملة اليهود للبشرية كلها ، واستطاعت أن تخلق من بين اليهود أنصارا لحركتهم التسللية من أجل تحقيق مطامعهم . وفي أواخر القرن التاسع عشر ، ظن القائمون على هذه الجمعية السرية أن الوقت قد حان للبدء في التسلل الهدام وتنفيذ ما سبق أن بيتوه من غدر . فكشفوا النقاب عن وجوههم تحت اسم « الصهيونية » ، وأخذوا يُنَفِّسون عن حقدهم بالعمل على إنشاء وطن قومي لليهود ، وذلك في فلسطين أولا ، ثم إدخال الأقطار العربية المجاورة في نطاقه ثانيا ، وأخيرا السيطرة على سائر أرجاء العالم . فالصهيونية التي تواجهها القومية العربية اليوم هي جماعة الفريسيين ، في ثوب جديد يتفق والعصر الحاضر ، وشعارها في معاملة تلك القومية هو شعار التلمود وتعاليمه ، بما فيها من تعصب عنصري ،

وكذب ولصوصية وخداع ، وحب لسفك الدماء دون شفقة أو رحمة . فالصهيونية تحاول أن تحقق تعاليم التلمود كلها ، متوسلة في ذلك بآخر تعاليمه التي تنزع كل شفقة من نفوسهم .

تسلل الصهيونية إلى الشرق العربي

تحت ستار الاستعمار الأوربي

تحالف الصهيونية مع الاستعمار البريطاني :

يعتبر القرن التاسع عشر ، الذى شاهد ظهور الصهيونية ، مرحلة خطيرة فى تاريخ القومية العربية . ذلك أن معظم البلاد العربية كانت خاضعة إذ ذاك للأتراك العثمانيين ، الذين نسوا أخوتهم للعرب فى الدين الإسلامي ، وعملوا على حكم تلك البلاد حكما طاغيا استغلاليا . وكان الاستعمار الأوربى ينظر إلى سوء حكم الأتراك العثمانيين فى البلاد العربية بعين ملؤها الرضى ، لأنه طمع إذ ذاك فى انتزاع تلك البلاد لنفسه ، والقضاء فى الوقت نفسه على دولة العثمانيين كذلك . واستهلت انجلترا فى القرن التاسع عشر تلك السياسة الاستعمارية الأوربية ضد كل من العرب والعثمانيين . وانتهز الإنجليز سوء حكم أسرة محمد على ، وخيانة

الخديوى توفيق ، واحتلت مصر فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٨٢) .

ولم تلبث الأحداث بعد ذلك أن مهدت لانجلترا القضاء على حكم العثمانين للبلاد العربية ، ووضعها تحت وطأة الاستعمار الأوربى . إذ حدث فى مطلع القرن العشرين تجمع سحب الحرب العالمية الأولى ، بين ألمانيا من جهة ، وانجلترا وحلفائها من جهة أخري وتوسّل كل من الفريقين المتنازعين بشتى الطرق ،مشروعة كانت أم غير مشروعة لاكتساب الأنصار والفوز فى الحرب . وكانت انجلترا تدرك في ذلك الوقت سخط العرب علي الأتراك ، وثوراتهم المتكررة علي حكمهم الغاشم . ولذا ما كادت تركيا تنضم إلى جانب ألمانيا فى الحرب حتى بادر الإنجليز إلى الإتصال بالعرب وطلب مساعدتهم فى نضالهم ضد كل من تركيا وألمانيا . ودخل الإنجليز فى مفاوضات مع الشريف حسين أمير مكة ، نظرا لمكانته فى السياسة العربية فى ذلك الوقت ، وبعث إليه بعدة رسائل عن طريق ممثلها فى مصر إذ ذاك وهو هنرى مكماهون .

واتفق الجانبان العربى والبريطانى على أن يشترك العرب فى الحرب إلى جانب انجلترا مقابل اعتراف تلك الدولة باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالا : خط مرسين — أطنه حتى درجة ٣٧ شمالا ، ومنها على امتداد أدرنه — ماردين حتي حدود فارس .

شرقا : الحدود الفارسية حتى الخليج العربى .

جنوبا : المحيط الهندى خلا عدن .

غربا : البحر الأحمر والبحر المتوسط حتي مرسين .

وفى الوقت نفسه أقدمت تركيا على خطوة خطيرة دفعت العرب إلى الثورة ضدها ، ذلك أن الحاكم العثمانى على الشام أعدم عددا من الأحرار العرب ، وقطع بذلك كل أمل للبلاد العربية فى تركيا . ولذا دخلت الجيوش العربية إلى جانب انجلترا فى الحرب ضد ألمانيا وتركيا .

وبينما تتقدم انجلترا نحو النصر فى الحرب العظمى الأولى بفضل مساعدة العرب ، وقعت أحداث التسلل الصهيونى إلى الشرق العربى تحت ستار الاستعمار الأوربى ، حيث وجد كل من هذين الطرفين في التحالف معا سبيلا لتحقيق مآربهما الفاسدة ضد القومية العربية . واتخذت مراحل هذا التحالف الدنىء طابع الغدر ، الأمر الذى ما زال قائما بين أعداء القومية العربية إلى اليوم . ذلك أن انجلترا عقدت مع فرنسا اتفاق « سايكس — بيكو » ، فى مارس سنة ١٩١٦ ، من أجل

اقتسام البلاد العربية بينهما بعد انتهاء الحرب ، دون احترام للعهود التي سبق أن قطعها الإنجليز على أنفسهم لشريف مكة . ووضح هذا الاتفاق طلائع التحالف بين الصهيونية والاستعمار الأوربي ، والذى بلغ أشده فى الوقت الحاضر .

استغلت انجلترا اتفاق سايكس — بيكو لجذب الصهيونية إلى جانبهم فى الحرب ، على حساب البلاد العربية كذلك . فنصت انجلترا فى الاتفاق السالف الذكر على أن تبق فلسطين خارج نطاق التقسيم مع فرنسا ، وتقرر أن يوضع لها نظام دولى ، مع السماح لإنجلترا بالإشراف على مينائى : حيفا وعكا . وكان الهدف من ذلك إسالة لعاب الصهيونية التي اشتد نشاطها فى ذلك الوقت ، وبالتلويح لها بفلسطين . ثم لم يلبث الانجليز أن كشفوا عن تحالفهم الصريح مع الصهيونية نفسها ، وذلك قبل نهاية الحرب العظمى ، عامدين إلى الغدر بالعرب مرة أخرى ، ذلك أن بلفور ، وزير خارجية انجلترا ، أصدر فى نوفمبر سنة ١٩١٧ وعده المشهور ، الذى يسمح لليهود بإقامة وطن قومي لهم فى فلسطين العربية .

وهكذا اتفقت أهداف كل من الاستعمار الأوربى مع مطامع الصهيونية ، وذلك ضد القومية العربية . إذ استهدفت انجلترا

بخلق وطن قومي لليهود في فلسطين خلق قوة معادية ليقظة القومية العربية ، وتهديدها بحيث تجعل تفكيرها دائما فى شغل عن مناهضة الاستعمار الأوربى . فأدرك الإنجليز من مفاوضاتهم مع العرب أنهم أمة لها ماضيها المجيد ، وحاضرها الزاهر ، وأنهم لا يمكن أن يقبلوا بأى حال من الأحوال غض الطرف عما نزل بهم من غدر واستعمار . ولذا فإن استمرار الاستعمار للبلاد العربية يتطلب خلق قوة تقوم بمهمة أشبه « بكلب البستانى » يندفع فى الجهات المجاورة له ، بحيث يثير فيها الاضطراب ، ويشغلها عن العناية بأمورها الهامة . أما الصهيونية فرأت أنها لن تستطيع التسلل إلى الشرق العربى وحدها ، لأن سيف القومية العربية بتار ، وأنه سبق أن قضى على مثيلاتها من حركات التسلل ، وأبقى للعرب عزمهم وكرامتهم ، ثم إن العهد الذى يستطيع فيه أعداء القومية العربية أن يتسللوا فيه عن طريق الخداع العقائدى أو السياسى قد انتهى ، وأن العرب صاروا على جانب من الوعي القوى الذى يهتك أمثال هذه الحركات فى الوقت الحاضر . ولذا قبلت الصهيونية هذا التحالف مع الاستعمار ، لأن كلا منهم أشبه بعصابة اللصوص ، التى لا هدف لها إلا اقتسام الأسلاب ، دون البحث

عن المبادئ أو القيم ، التي لا وجود لها مطلقا عند أصحاب النفوس الخبيثة الشريرة .

التسلل الصهيوني إلى فلسطين :

كان الاتفاق بين الصهيونية والاستعمار البريطاني ، والذي تجلت مظاهره في وعد بلفور نقطة تحول في حركة تسلل الصهيونية إلى الشرق العربي ، إذ كان قادة الصهيونية يزورون فلسطين قبل وعد بلفور خفية ، يدرسون أحوالها ، شأن أعمال المنظمات السرية ، ويعودون إلى عصاباتهم يتدارسون فيما بينهم خطط العمل . فذهب موسى مونتيفور ، أحد دعاة الصهيونية إلى فلسطين سنة ١٨٢٧ ، وعاد بالآمال العراض عن سلب تلك البلاد ، وتهيئة الجو فيها لإقامة اليهود . وتلا هذه الزيارة الصهيونية ، موجة من المؤلفات الصهيونية تكشف عن تاريخ اليهود ، وما لاقوه من متاعب واضطهاد على أيدي السلطات في كل مكان ، وذلك بغية إثارة نفوس اليهود ، وحثهم على مساعدة الحركة الصهيونية ، ومن هؤلاء الدعاة الصهاينة موسى هيس ، الذي دوّن تاريخ اليهود مع روما ، وملأ كتاباته بالدعوة إلى إقامة اليهود في فلسطين ، وكذلك ليونسكي من أهالي أودسا ، حيث

شارك فى تنظيم الحركة الصهيونية ، وتوجيه نشاطها إلى فلسطين .
ولم تقتصر حركة الصهيونية على الدراسات فحسب ، ولكن صاحبها تسلل عملى تجاه فلسطين، إذ رأى قادة الصهيونية أن يمهدوا لحركتهم بإنشاء مستعمرات زراعية لهم فى فلسطين ، تحت ستار شراء الأراضى ، وتمليكها لليهود المقيمين هناك ووضع أساس هذه الخطوة الخطيرة موسى مونتيفور ، الذى سبق أن زار فلسطين لاستكشاف أحوالها ، ودعا سنة ١٨٥٤ إلى قيام تلك المستعمرات . وتطلب تنفيذ هذه الخطوة جمع المال من اليهود المنتشرين فى سائر الأنحاء . وكان اليهود هم أصحاب رؤوس الأموال فى أوربا ، ولهم بيوت مالية كبرى تتحكم فى اقتصاديات تلك البلاد . واستطاعت حركة التسلل الصهيونى أن تجد فى الرأسمالية اليهودية معينا على تحقيق أطماعها فى فلسطين وكان بيت البارون روتشلد اليهودى الألمانى أكبر ممول لتلك الحركة ، وأغدق الكثير على حركة المستعمرات اليهودية فى فلسطين . وسرعان ما قامت بيوت يهودية أخرى بما قام به بيت روتشلد ، وصارت الصهيونية بذلك على أبواب خطوة جديدة أخرى خطيرة ، من أجل الهجوم على القومية العربية .

ووضع أساس الخطوة الصهيونية الجديدة هرتسل اليهودى ،

إذ رأى أن الصهيونية لن تنجح فى محاربتها للقومية العربية إلا إذا خُلِقَت قاعده يهودية فى فلسطين . ونادى بفكرته الجديدة فى حركة التسلل الصهيونى بأن دعا سنة ١٨٩٦ ،فى كتاب له بأن يقوم اليهود بالهجرة على نطاق واسع إلي فلسطين ، والعمل على انتزاع أرضها من أيدى العرب ، سكان البلاد الأصليين . وصارت دعوة هذا الصهيونى الخبيث أخطر شطر فى حركة التسلل الصهيوني ضد القومية العربية ، والعنصر الذي ظهر فيه التعاون بين تلك الحركة والاستعمار على نطاق واسع . إذ بدأت الدول الاستعمارية تشجع هجرة اليهودية من بلادها إلى أرض فلسطين ، كلما أرادت تهديد العرب ، أو الضغط عليهم سياسيا واجتماعيا . وتحددت بذلك أهداف الحركة الصهيونية ، حيث انعقد مؤتمر لعصاباتها فى مدينة بازل سنة ١٨٩٧ ، تقرر فيه ما يلى :

أولا : العمل على تشجيع هجرة اليهود واستقرارهم فى فلسطين كزارعين وصناع وتجار .

ثانيا : تنظيم اليهود فى كل أجزاء العالم وإنشاء لجان خاصة لتأييد الصهيونية .

ثالثاً : تقوية الشعور القومى لدى اليهود .

رابعاً: العمل على اكتساب الحكومات المختلفة إلى جانب الصهيونية، واستخدام شتى الوسائل، مشروعة كانت أم غير مشروعة، من أجل تحقيق ذلك الغرض.

وتكونت عقب ذلك المؤتمر شركات يهودية لتمويل الحركة الصهيونية، ومساعدتها على تحقيق مآربها فى فلسطين، منها الوكالة اليهودية الأهلية لشراء الأراضى فى فلسطين. وأخذت الدول الاستعمارية الأوربية تعطف على تلك الجمعيات الصهيونية، من أجل تنفيذ مطامعها الاستعمارية فى البلاد العربية. وكانت إنجلترا هى المرتع الخصيب للحركة الصهيونية، وتشجيع تسللها ضد القومية العربية. ذلك أن انجلترا لها مطامع واسعة فى البلاد العربية، وتريد استغلال التسلل الصهيونى لصالحها. وشجع هذا الميل الإنجليزى إلى الصهيونية قيام الحرب العالمية الأولى، وانضمام تركيا إلى ألمانيا ضد انجلترا فى تلك الحرب. إذ لما كانت فلسطين جزءاً من أملاك الدولة العثمانية إذ ذاك، صار كل من الإنجليز والصهاينة يتطلعون إلى ذلك البلد الأمين، بغية تحقيق مآربهما الاستعمارية على حسابه، وحساب أهله العرب المسالمين.

وبذلك اتخذت حركة التسلل الصهيونى مركزاً لها فى انجلترا حيث أدار قادتها — مثل ناحوم وزمان — دفة الهجوم على القومية

العربية ، واخذوا ينتظرون انتهاء الحرب العالمية الأولى لبدء التسلل الهدام . وحصلت العصابات الصهيونية من الاستعمار البريطاني إذ ذاك ، أى قبيل انتهاء الحرب على وعد بلفور ، وكشفت القناع عن مؤامراتها ضد القومية العربية . فما كادت الحرب تضع أوزارها حتي تكونت فى ٣ فبراير سنة ١٩١٩ لجنة فيها ويزمان اليهودى لوضع الخطة التي تحقق التسلل الصهيونى إلي فلسطين . واقترحت تلك العصابة أن تعهد الأمم إلى بريطانيا بالانتداب على فلسطين ، من أجل العمل على قيام وطن قومى لليهود بها ، وتكوين دولة يهودية هناك كذلك . ونجحت الصهيونية فى حمل عصبة الأمم على إصدار قرار يضع المقترحات السالفة موضع التنفيذ ،وصار التحالف بين الصهيونية والاستعمار البريطانى على أشده ضد القومية العربية .

وكان أخطر مظاهر التعاون الصهيونى البريطاني المبكر هو تنظيم انجلترا للهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وتسهيلها سبل العمل والارتزاق لأولئك المهاجرين اليهود فى فلسطين ، وكذلك إقامة المساكن لهم وإتاحة المتاجرة وشراء الأرض هناك . وتمت تلك الخطة بتهجير ١٠ آلاف يهودي سنويا إلي فلسطين التي أسسوا بها ١٢٠ مستعمرة ، منحها الاستعمار البريطانى

كل التسهيلات ولأفرادها الإشراف على إدارة المرافق العامة فى فلسطين . وظل تيار الهجرة اليهودية يتدفق على فلسطين ، ولا سيما بعد قيام هتلر فى حكم ألمانيا ، واضطهاده لليهود فيها . فبعد أن كان عدد اليهود سنة ١٩٣٤ نحو ٣٠٠,٠٠٠ ، وذلك إلى جانب سكان فلسطين العرب البالغ عددهم المليونين ، وازداد اليهود إلى ٨٠٠ ألف فى السنوات التالية وظل الاستعمار البريطانى يسهل وفود الهجرات اليهودية إلى فلسطين ويمكن لها علي حساب سكانها العرب ، دون أن يقيم للعهود وللمواثيق الدولية والإنسانية أية حرمة .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية دخلت حركة التسلل الصهيونى فى مرحلة أخرى من نشاطها ، إذ نقلت مركزها من انجلترا إلى أمريكا ، وحملت رئيسها إذ ذاك ، وهو ترومان ، على السماح بهجرة مائة ألف يهودى إلى فلسطين فى الحال . وكان اختيار الصهيونية للولايات المتحدة نتيجة انتقال مركز القوة إليها عقب الحرب ، وخروج دول الاستعمار الأوربى ، ومنها انجلترا نفسها خائرة القوى . وأخذ رأس المال اليهودى فى الولايات المتحدة يغذى الصهيونية ، ويضغط على ساسة أمريكا ، حتي جعلوا منهم أدوات لخدمة تلك الحركة التسللية المعادية للقومية العربية . ولذلك

بدأ الصهاينة فى فلسطين يكشفون النقاب عن وجوههم ، وبدات عصاباتهم سلسلة إجرامية ، على نحو ما رسمه التلمود لليهود ، من غدر وقسوة لا تعرف للقيم الإنسانية وزنا أو احتراما . ففى ٩ أبريل سنة ١٩٤٨ ارتكبت عصابات الصهيونيين فى فلسطين مذابح تقشعر من سماعها الإنسانية ، ولم يسمع التاريخ على طول صفحاته بمثلها ، إذ أنزلوا بالعرب الآمنين فى دير ياسين مذبحة شنيعة ذهب ضحيتها كثير من الرجال والنساء والأطفال . واستهدفت عصابات الصهيونية من ذلك تشريد العرب سكان البلاد الأصليين من أوطانهم ، وطردوا فعلا الكثير منهم .

وكأنما جاءت تلك المذابح نتيجة خطة سرية مع الاستعمار البريطانى ، إذ أعلن فى ١٥ مايو ، أى فى الشهر التالي المذبحة السالفة الذكر ، انتهاء انتدابه على فلسطين . وجاء ذلك بمثابة اعتراف من الاستعمار بأن عصابات الصهيونية فى فلسطين قد بلغت أشدها ، وأنها قادرة على الوقوف فى وجه القومية العربية . غير ان الجيوش العربية جميعا بادرت بإنقاذ فلسطين ، ودخلت فى معارك عديدة ضد عصابات الصهيونية ، وكادت تقضى عليها قضاء مبرما ، لولا تدخل الاستعمار مرة أخرى لينقذ تلك الحركة التسللية ، ويُمكّن لها ضد القومية العربية . واستطاع الاستعمار

عن طريق عملائه فى البلاد العربية أن يحول بين الجيوش العربية وإنقاذ فلسطين ، وبادر بالاعتراف بالصهيونية فى فلسطين ، تحت اسم دولة اسرائيل .

تطويق القوميـــة العربية

لمركز التسلل الصهيونى

قاهر الصهيونية :

ظن التحالف الصهيونى الاستعمارى أنه قد آتي أكله بانتزاع فلسطين من جسد الأمة العربية ، كما اعتقد القائمون على أمره أن الجو خلا لهم للنيل من القومية العربية ، وتحقيق ما عجز عنه الأوائل من أسلافهم من قادة الحركات التسللية المعادية لتلك القومية . ولـكن خاب فأل قادة هذه الحركة الجديدة ، ذلك أن جهاد الأمة العربية فى مقاومة التسلل الصهيونى ، منذ طرق أبواب الشرق العربى ، وكذلك هتك دسائس الاستعمار الأوربى التى اعترفت بذلك التسلل ، لم يضع هباء . إذ أنجبت الأمة العربية فى تلك المرحلة الخطيرة من تاريخها ، ابنا بارا نشأ خبيرا بمتاعبها ، عليما بأمثل السبل لإعلاء قوميتها ، حريصا على متابعة رسالتها فى خدمة الإنسانية ورفاهيتها .

وفى شهر يناير سنة ١٩١٨ ولد منقذ القومية العربية ،ورائدها جمال عبدالناصر،أى فى العام التالى لأول حلف قام بين الصهيونية والاستعمار ، وهو وعد بلفور .

وقد شب وترعرع وهو يسمع صيحات مواطنيه المصريين تنادى فى نوفمبر من كل عام بسقوط وعد بلفور ، الذى خلق مركزا للتسلل الصهيونى فى قلب الوطن العربى . وقد عبر عن أثر تلك الأحداث فى نفسه ، وهو في مرحلة الشباب قائلا : « وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسى أن طلائع الوعى العربى بدأت تأخذ طريقها إلى تفكيري وأنا طالب فى المدرسة الثانوية ، أخرج مع زملائى في إضراب عام فى الثانى من شهر نوفمبر من كل سنة احتجاجا على وعد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطنا قوميا فى فلسطين ، اغتصبته ظلما من أصحابه الشرعيين . . . وحين كنت أسائل نفسى فى ذلك الوقت ، لماذا أخرج فى حماسة ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التى لم أرها ؟ لم أجد فى نفسى سوى أصداء العاطفة » .

وإذا كان جمال عبد الناصر قد تساءل وهو طالب لماذا يتحمس لفلسطين ، فسرعان ماجاء اليوم الذي تفتقت فيه عروبته الصادقة . فبعد أن تخرج من الكلية الحربية اجتاز امتحانه العربى

الأول ، الذى شاءت الأقدار أن تعقده له على أرض فلسطين ، التى اتخذتها الصهيونية والاستعمار مركزا للتسلل ضد القومية العربية . ذلك أن رؤساء التحالف الصهيونى الاستعمارى وضعوا فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ قرارا بتقسيم فلسطين ، تمكينا لليهود فيها . وعندئذ تنبه هذا القائد الملهم للخطر الذى تهدد القومية العربية ، قبل أن تفيق الحكومات العربية فى ذلك الوقت لما يكتنف بلادها من أضرار ، وأخذ يرسم الخطوات العملية لدفع هذا الخطر ، دون الاكتفاء بالشعارات والأقوال التى لا طائل منها .

وشرح جمال عبدالناصر خطواته العملية لإنقاذ فلسطين من التحالف الصهيونى البريطانى قائلا : « وأذكر يوما ، عقب صدور قرار بتقسيم فلسطين فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، عقد الضباط الأحرار اجتماعا ، واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين ، وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين ، وكان ما يزال يعيش فى الزيتون ، وأقول له : إنكم فى حاجة إلى ضباط يقودون المعارك ، ويدربون المتطوعين ، وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم تحت أمرك فى أى وقت تشاء » . واتفق الرئيس وزملاؤه

إذ ذاك على أن يشترك الطيارون المصريون فى مساعدة عرب فلسطين ، وذلك دون خوف ، فكلهم فداء لقوميتهم .

وعبر الرئيس جمال عن مشاعره وأحاسيس إخوانه إذ ذاك قائلا : « ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين .... وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك فى هذه العملية ، وأذكر ان كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة إلى الوطن قبل سنوات قد تطول ..

« إن هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حبا فى المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة فى نفوسنا وإنما كانت وعيا ظاهرا لإيماننا بان رفح ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود إخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم فى منطقة واحدة » .

ولكن هذه الخطة العملية لم تُنَفَّذ بسبب وقوع الحكومات العربية إذ ذاك تحت ضغط الاستعمار البريطاني ، ولم يُجِب للفتى على طلب الضباط الأحرار بالنفى أو بالإيجاب . ثم سارت الأحداث بعد ذلك سراعا ، وانتهت بدخول الجيوش العربية فلسطين ، يوم ١٥ يوليو ١٩٤٨ ، لإيقاف مذابح اليهود بالعرب الآمنين هناك . وشاءت الأقدار مرة أخرى ان تسطر بجمال عبد الناصر

فرصة الدفاع عن القومية العربية ضـد حركة التسلل الصهيونى الاستعمارى ، حين تولى قيادة إحدى الفرق المصرية فى هجومها على مراكز الصهيونية فى فلسطين ،وأظهر من البطولة ماخلده له التاريخ ، وغدا طابع البطولة يسم كل أعماله وتفكيره . فكان يتقدم جنوده فى ساحة القتال ، ويأبى البقاء فى المؤخرة لإصدار الأوامر ، كما تنص على ذلك قواعد الحرب فى العصر الحديث ، وأصيب من جراء ذلك فى صدره ، ولكن للقادير حفظته ليؤدى رسالته فى الدفاع عن وطنه العربى الأكبر . ثم إن هذا القائد العربي البطل لم يرغب فى البقاء في المستشفى طويلا ، وتقدم لقيادة جنده مرة أخري في قتال أعداء القومية العربية . وقد حوصرت كتيبته فى « عراق المنشية » ، وهوجمت مرتين ، ووصلت قوات الأعداء فى إحدى هجماتها إلى مسافة أمتار معدودة من خندق القائد العربى ، ولكن جمال عبد الناصر صد هجوم أعدائه ، ونال نصراً باهرا بفضل إيمانه بمبادىء القومية العربية ، وشجاعته . وسجل التاريخ للبطل العربى أول انتصار له على حركة التسلل الصهيوني ، كما اعترف الصهاينة أنفسهم بذلك فى كتاب أصدرته عصاباتهم باسم « جيش إسرائيل » ، إذ جاء فى ذلك الكتاب ما نَصُّه : « لقد انتصرنا فى جميع المعارك التى تلت الهدنة الثانية

فى أكتوبر سنة ١٩٤٨ ، إلا فى عراق للنشية » ، وهى التى خاض غمارها البطل ، الذى دفعت به المقادير لأن يكون « قاهر الصهيونية » ، ومحطم تلك الحركة التسللية ضد القومية العربية فى العصر الحديث .

يقظة القومية العربية :

منذ عاد جمال عبد الناصر من ميدان فلسطين وهو يعد المدة الفعالة لإيقاظ القومية العربية ، وتأهيلها لصد حركة التسلل الصهيونى ، قبل أن تنتشر سمومها إلى سائر أرجاء الوطن العربى . وأدرك منذ اللحظة الأولى أن ذلك لن يتم إلا بتحرير مصر ، قلب العروبة النابض ، أولا وقبل كل شىء من فساد أسرة محمد على ، وأعوانها من طبقة الإقطاعين . وفى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، أى فى الشهر نفسه الذى سبق للصهيونية فيه أن غدرت بالعرب فى فلسطين من سنة ١٩٤٨ ، تحررت مصر بفضل ثورتها المباركة ، وصار قلب العروبة ينبض مرة أخرى ، ويرسل الدم إلى سائر عروق الأمة العربية ، ويوقظها من غفوتها . وأعلن جمال عبد الناصر عن رسالة مصر فى عهدها الجديد قائلا : « ولن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم بنظرة

بلهاء إلا وندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان . . . أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام » .

« إن ظروف التاريخ أيضاً مليئة بأدوار البطولة المجيدة ، . . ولست أدرى لماذا يخيل إلي أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعباً ، منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه ، فإن أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به . . . وأبادر هنا وأقول إن الدور ليس دور زعامة . . . وإنما هو دور تفاعل وتجاوب . . ويكون من شأنه خلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدور إيجابى فى مستقبل البشر » .

وقام جمال عبد الناصر بذلك العبء خير قيام ، واستطاع أن يحفظ للعروبة هيبتها ، ولم يدع لحركة التسلل الصهيونى أن تستفيد من الاستعمار أية فائدة قد تحقق لها الإساءة إلى القومية العربية مرة أخرى . ذلك أن الاستعمار عمد إلى تزويد عصابات الصهيونية فى فلسطين بالسلاح من دون العرب حتى تحمل البلاد

العربية على أن تبقى دائما خاضعة لمشيئة الصهيونية . وحطم الرئيس جمال عبدالناصر هذا التسلل الصهيونى الجديد ، وشرح سياسته العملية من أجل ذلك قائلا للعرب : « يريدون منا (أى الدول الاستعمارية) أن ننفذ السياسة التى تملى ، ولكن مصر أبت ... فمنع السلاح عنا ، وسلحت إسرائيل وأصبحت خطرا يهدد . . . استطعنا بعد ذلك أن نحصل على السلاح . . . فحصلت ضجة ، ما سببها ؟ ، قالوا : إن لديهم خطة ، وهى حفظ التوازن بين الدول العربية وإسرائيل ، طيارة للدول العربية واخرى لإسرائيل لحفظ التوازن ، من الذى أقامكم أوصياء علينا لحفظ التوازن؟ نحن لانقبل وصاية أحد ، ولكنه الاحتكار للسلاح الذى كانوا يتحكمون به فينا ، فلما استطعنا تحطيم هذا الاحتكار انهارت كل خططهم » . وغدت حركةالتسللالصهيوني محاصرة فى عقر دارها ، ولا تستطيع الانطلاق ضد القومية العربية ، التي أيقظها جمال عبدالناصر ، ووضع فى يدها سلاحا ماضياً تدافع به عن نفسها ضد أى عدوان يقع عليها مرة أخرى ، وتسعى بفضله فى الوقت نفسه لاسترداد فلسطين من العصابات الصهيونية .

هدم التسلل الصهيونى الاستعمارى :

رأى التحالف الصهيونى الاستعمارى فى يقظة القومية العربية خناقا وثيقاً صار يلتف حول عنقه ، وأن الموقف يتطلب القيام بعمل سريع غادر فى الوقت نفسه قبل أن تشد القومية العربية وثاق هذا الخناق وتزهق أنفاس حركته. واتجهت دسائس أعداء القومية العربية إلى مصر نفسها ، التى صارت مركز المقاومة لحركة التسلل الصهيونى ، والتى كادت تقتلها فى مهدها . واتخذ التسلل الجديد ضد القومية العربية طابع الضغط الاقتصادى على مصر ، وذلك بمحاولتهم عرقلة مشروع السد العالى ، الذى يضع الأساس المتين لنهضة العرب ، ويدفع بهم إلي ميادين الرخاء الاقتصادى ، والتقدم الصناعي ، والمجد الحربى . فاتفقت الصهيونية مع الاستعمار على رفض تقديم أية معونة اقتصادية لمصر فى تحقيق هذا المشروع الحيوى ، إلا إذا تخلت عن رسالتها فى إيقاظ الأمة العربية ، والإعلاء من شأن قوميتها . ورفضت مصر ذلك الضغط في إباء عربى ، وأعلنت تأميم قناة السويس ، وأعادت للعرب موردا سلبه منهم الاستعمار ، وكرست موارده لبناء السد العالى وجاء تأميم قناة السويس نصرا باهرا للقومية العربيـــة

لم يكن يتوقعه دعاة التسلل الصهيونى الاستعمارى، وخيب آمالهم. ولذا اتفقت الصهيونية ومعها الاستعمار الأنجليزى والفرنسى على القيام بحركة تسلل كبرى ضد مصر ، وحرمانها من القوة الحربية التي وصلت إليها ، ممثلة فى جيشها العربى القوى ، للذود بأحدث الأسلحة والتدريبات العالية . وكانت خطة هذا التسلل الخطير ، هى أن تبدأ العصابات الصهيونيـة بالهجوم على مصر فى ٢٩ أكتوبر (سنة ١٩٥٦) ، وذلك بغية استدراج الجيش المصرى العربى إلى شبه جزيرة سينا وما تلاها من أرض فلسطين، حتى إذا ما ابتعدت القوات المصرية عن قاعدة قناة السويس ، وانشغلت بمطاردة العصابات الصهيونية تبدأ حركة التسلل الثانية ، وذلك بأن تبعث كل من الدولتين الاستعماريتين ، انجلترا وفرنسا بجيوشهما لاحتلال منطقـة قناة السويس ، بحجة الحيلولة بين القوات المصرية والعصابات الصهيونية . ولـكن لم تـكد تلك الحركة التسللية تمتـد إلى أرض مصر حتى هَبَّ الشعب المصرى هبة الأسد المصور ، وانطلق يمزق قوى الغدر ، على حين انطلقت القومية العربية في كل مكان ، تقطع عن قوي الشر البترول ، وغير ذلك من سائر المعونات الاقتصادية . وبذلك استطاعت القومية العربية القضاء على هذا التسلل الغادر وهو مازال فى دور الرضاع .

وانسحبت جيوش الاستعمار من بور سعيد تجر وراءها اذيال الخيبة والفضيحة العالمية ، علي حين هربت العصابات الصهيونية من رمال سيناء ، بعد أن لطخت سمعتها بالعار والخزى وأثبتت للعالم ، فى صورة لاتقبل الشك ، أن الصهيونية مازالت ربيبة التلمود ، والقائمة علي تعاليمه الفاسدة . واكتسبت القومية العربية من هذا الانتصار روحا جديدة عبر عنها الرئيس جمال عبد الناصر غداة النصر قائلا : « دخلنا للعركة وكانت القومية العربية كلاما . . . وخرجنا منها وقد أصبحت عملا حقيقيا . . . إن القومية العربية هى الهدف ، هى الغرض ، هى هدف الاستعمار إن القومية العربية لم تكن كلاما يقال ، بل أصبحت عملا فعالا ، والعرب تعاونوا ، نسفوا أنابيب البترول ، وعرضوا أنفسهم للخسارة ، ولكنها ضربة قاضية للأعداء وكسب للقومية العربية »

وهكذا تم تطويق حركة التسلل الصهيونى مرة أخرى ، وأخذ قادتها يولولون ويصرخون ، لأنهم يدركون أن ساعة الحساب آتية لا ريب فيها ، يوم لا ينفعهم تسلل أو استعمار ، يوم تزلزل بهم الأرض ، وتطبق عليهم القومية العربية من كل مكان . إن يوم عودة العرب إلى وطنهم فلسطين قريب ، لأن كل عربي فى شتى أنحاء الوطن الكبير صار يعرف مكانه فى الدفاع

عن قوميته ، ويفهم جوهرها السليم على نحو ما شرح قاهر الصهيونية ، جمال عبد الناصر للوفود العربية التى جاءت تهنىء بالانتصار على قوى التسلل ، فقال :

« ليست القومية العربية رجلا واحداً ، أو فردا واحدا ، ليست القومية العربية من وحى رجل واحد أو من وحى فرد واحد ، ولكنها من وحيكم أنتم ، ومن وحى آبائكم ، ومن وحي أولئك الذين استشهدوا فى سبيل هذه الأيام التى نعيشها لنري فيها الأمة العربية وهى تتحرر ، وهى تصمم على الاستقلال ، وتصمم علي الانتصار » .

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لـكل أنواع المعرفة

فاحرص على ما فاتك منها ...

واطلبها من :

١ ـ دار القلم ... ... ١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
٢ ـ مكاتب شركة توزيع الأخبار ... ... فى الإقليم المصرى
٣ ـ وكلاء الشركة القومية ... ... في جميع البلاد العربية
٤ ـ مكتبة المثنى ... ... بغداد ـ العراق
٥ ـ الشركة القومية للنشر والتوزيع ... ... تونس
٦ ـ مكتبة الندوة ... ... أم درمان ـ السودان

مطابع دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية

- اول مجموعة من نوعهـا تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء ان يقيم فى بيته مكتبـة جامعة تحوى جميع الوان المعـرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر. فى اوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

الفلك والحياة

الدكتور عبد الحميد سماحة

الدكتور عدلى سلامة

١٥ ديسمبر ١٩٦١

دار القلم بالقاهرة

الثمن ٢ مـ